سلسلة الإصدارات العلمية
(١)

منهج السلف

في التعامل مع الفتن

محاضرة ألقاها في الجمعية
أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

منهج السلف

في التعامل مع الفتن

جمعية
مركز الإمام الألباني
للدراسات والأبحاث

الأردن ـ عمان ـ المقابلين ـ شارع الحرية ـ مبنى رقم (٤٩)

www.alalbany.org
info@alalbany.org
twitter.com/Alalbanycenter
fb.com/Alalbany
Instagram.com/Alalbanycenter
telegram.me/Alalbanycenter
Youtub.com/AlalbanycenterJordan

تلفون: ٠٠٩٢٦٤٢٠٠٣٠٥

خلوي: ٠٠٩٦٢٧٩٧٥٠٩١٥٥

فاكس: ٠٠٩٦٢٠٦٤٢٠٥٤٥١

ص.ب: ٢٢١ أبو علندا ـ الرمز البريدي: ١١٥٩٢

حساب رقم:

(١٥٠٨١٦٢٤١٠٤٠٠٠٠١)

البنك الإسلامي الأردني

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

حقوق الطبع محفوظة لدار النوادر

دار النوادر
لبنان ـ بيروت
ص. ب: 4462/14
هاتف: 009611652528
فاكس: 009611652529
E_mail: info@darelnawader.com
Website: www.darelnawader.com

سِلسِلَةُ الإصدَاراتِ العِلمِيَّةِ
(١)

منهج السلف

في التعامل مع الفتن

مُحَاضَرَةٌ أَلقَاهَا فِي الجَمعِيَّةِ
أبو عُبيدة مَشْهُور بن حَسَن آل سَلمَان

جمعية مركز الإمام الألباني للدراسات والأبحاث

من جليل (النصح) في زمن (الفتن):

يقول أبو العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«فتدبَّرْ العدل والبغي! واعلم أن عامة الفساد من جهة البغي، ولو كان كل باغٍ يعلم أنه باغٍ لهانت القضيةُ، بل كثير منهم أو أكثرهم لا يعلمون أنهم بُغاة، بل يعتقدون أن العدل منهم، أو يُعرِضون عن تصوُّر بَغْيِهم، ولولا هذا لم تكن البغاة متأولين، بل كانوا ظلمةً ظلمًا صريحًا، وهم البغاة الذين لا تأويل معهم.

وهذا القدر من البغي بتأويل ـ وأحيانًا بغير تأويل ـ يقع فيه الأكابر من أهل العلم، ومن أهل الدين؛ فإنهم ليسوا أفضل من السابقين الأولين...

والفتن التي يقع فيها التهاجر والتباغض والتطاعن والتلاعن ونحو ذلك هي فتنٌ، وإن لم تَبلُغِ السيفَ، وكل ذلك تفرق بغيًا.

فعليك بالعدل والاعتدال والاقتصاد في جميع الأمور، ومتابعة الكتاب والسنة، وردّ ما تنازعت فيه الأمة إلى الله والرسول، وإن كان المتنازعون أهل فضائل عظيمة ومقامات كريمة، والله يوفِّقنا لما يحبه ويرضاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله» انتهى.

«جامع المسائل» (٦/ ٤١ ـ ٤٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد خص النبي ﷺ هذا الموضوعَ في كثير من المجالس، بل أفردهُ في يومٍ بتمامِهِ وكمالِه كما في «صحيح مسلم»؛ يقول أبو زيد عمرو بن أخطب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: «صَلَّى بِنَا رَسُول الله ﷺ الفجرَ، وَصَعِدَ المِنبرَ فَخَطَبنا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ المِنبرَ، فَخَطَبنا حَتَّى حَضَرَتِ العَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبرَ، فَخَطَبنا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمسُ، فَأَخبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا»[1].

ويقولُ حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، ما ترك شيئًا يكون في مقامِه ذلك إلى قِيَام السَّاعة، إلا حدَّث به، حفِظه مَن حفِظه ونسيَه مَن نسيَه»[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٩٢).

(٢) رواه مسلم (٢٨٩١).

كان النبي ﷺ يشاهدُ الفِتَنَ ويراها كما نشاهدُ الأشياء وكما ينظرُ الواحدُ منا إلى أسطوانة المسجد؛ فقد أخرج البخاري في «صحيحه» بسنده إلى الحِب بن الحِب: أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ من آطام المدينة[1]، فقال: «**هل تَرَونَ ما أرَى؟** قَالُوا: لا، قَالَ: «**فَإِنِّي لَأَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلالَ بُيُوتِكُم كَوَقْعِ القَطْرِ**»[2]. أي: كما أن المطر لما ينزل من السماء يتخلل أسطح البيوت، فكان النبي ﷺ يرى الفتن، وهذه الرؤيا من الوحي فهي حقٌّ، وهي قول الصادق المصدوق ﷺ فموضوع الفتن موضوعٌ مهم ينبغي أن نعلَمه.

وقد ذكر بعض أهل العلم عن عبد الله بن أبي جمرة أنه قال: «وددت أنّه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلّم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنّه ما أُتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك»[3]. اهـ

وكان ذلك في عصر الخير والعافية، وأستعير منه ـ رحمه الله ـ هذه الكلمة فأقول: لو كان الأمر إليّ لجعلت في كل مسجد ومحفل ومجتمع عام للنّاس عالمًا أو طالب علم يتكلّم للناس عن الفتنة.

ثبت عند أبي داود أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ السَّعيد لـمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ السَّعِيد لـمَن جُنِّبَ الفتنَ، إنَّ السَّعيد لـمَن جُنِّبَ الفتنَ، ولمن ابتلي فصبر فواهًا**»[4].

الناس يتكلمون ويقولون: هذا العصر عصر فتنة، والفتنة انتشرت وظهرت،

---

(١) الأُطُم: هي التلة المرتفعة ارتفاعًا قليلًا.

(٢) رواه البخاري (١٨٧٨، ٢٤٦٧، ٧٠٦٠).

(٣) «المدخل» (١/ ٣) لابن الحاجّ.

(٤) «سنن أبي داود» (٤٢٦٣، باب: في النهي عن السعي في الفتنة).

وقلّ من عالج هـذا الموضوع بمنهج السلف على وجـه تقع بـه النجاة في الدنيـا والآخرة، وجُلّ من يتكلم عن الفتنة في وقت الفتنة إنما يخوض فيها بفتنة، والكلام عن الفتنـة لا ريـب كثير ومتشعب ويحتاج إلى تأصيل وبيان للقواعد والكليات، وإن الوقـت ضيـق، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، وإني سـأتعرض إلى مسائل مهمات مجملات حول الفتنة، تندرج في عدة محاور.

وأصل هذه الرسالـة محاضرة ألقيتها في عدة دول، وهي مخاض كثرة تأمل ونظر، ومباحثة ومناقشة مع عدد من العاملين، ممن اختلفت وتباينت مواقفهم من الأحداث الجسام، والفتن التي عصفت في بلاد المسلمين في العقدَين المنصرمين.

وجهـدتُ فيما قررت أن لا أنسـاق وراء الإعلام، ولم أحرص على إرضاء الناس، ولكن درتُ مع النصوص، من خلال استقراء مواقف الصحابة والتابعين، وتقريرات الفحول من العلماء.

عمل غير واحـد من إخواني وتلاميـذي ـ جزاهـم الله خيرًا ـ على تفريـغ المحاضرة، ووضعوها بين يديّ، وجهدتُ على توثيق ما فيها، والربط بين نصوصها، وبذلتُ جهدًا في العناية بها لتصبح بهذه الحلّة، والحمد لله وحده.

واللهَ أسألُ ـ سبحانـه ـ أن ينفع بهذه الكلمات، وأن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم، وأن يضع لها القبول، إنّه خيرُ مسؤول ومأمول، وصلى الله على نبيّنا محمّد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

وَكَتَبَ

أبو عبيدة

مشهور بن حسن آل سلمان

تَعْرِيفاتٌ وَاصْطِلَاحَاتٌ وَفُرُوق

* مَا مَعْنَى الْفِتْنَة؟

الفتنة في العربية من فَتَنَ، فهي مصدر، وفتنتُ الذهب: أي عرّضته للنار وخلّصته من الشوائب التي تلحق به.

قال ابن فارس: «الفاء والتاء والنون أصلٌ صحيح يدلُّ على ابتلاء واختبار، من ذلك: الفِتْنة، يقال: فتَنْتُ أفتِنُ فَتْنًا، وفَتَنْتُ الذّهبَ بالنّار: إذا امتحنتُه، وهو مفتونٌ وفَتِين، والفَتَّان: الشَّيطان»[1].

* الْفَرْقُ بَيْنَ الْفِتْنَة وَالْبَلَاء[2]:

فدخول الأمة بأجمعها في الصّعاب إنما هو فتنة، وما يصيب الناس بآحادهم وأفرادهم إنما هو بلاء، وإن شئت فقل: إن العملية التي يقع فيها المجموع فتنةٌ، والذي يقع فيه الآحاد والأفراد بلاء، والعقوبة قد تكون الأثر المترتب على الفتنة أو على البلاء، فإن كان الأمر في حقّ الأمة بكلّها وكلكلها فهي فتنة، وإن كانت في حق شخص فإنما هو بلاء، وقد تنال العقوبة في الفتن بعضَ من لم يحسن

---

(١) «مقاييس اللغة» (٤/ ٣٧٧) مادة (فتن).

(٢) ترى هذه الفروق مؤصلة في كتابي «من قصص الماضين» عند ذكري للدروس المستنبطة من قصة نبي الله أيوب لله (ص١٧٧ ـ ١٨٨).

الدخول فيها، ولم يحسن بداياتها.

* ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱلْعُقُوبَةِ[1]:

أحاول بإيجاز أن أضع بعض العلامات الفارقة بين الابتلاء والعقوبة، فأقول:

١ ـ العقوبة هي الجزاء المعجّل الذي يقع على العباد نتيجة الفشل والرسوب في الامتحان والاختبار، بينما الابتلاء هو عملية دخول هذا الاختبار، فالابتلاء مقدمة، والعقوبة نتيجة.

٢ ـ الابتلاء من مجالاته الوقوف أمام الأسباب والمسبّبات، والعقوبة ناتجة عن الانحراف عن هذه الأسباب، وتنكُّب مسارها.

٣ ـ الاختلاف في أسباب كل منهما، فالإيمان والاستقامة على المنهج سبب في الابتلاء، واشتداده في هذا المجال دليل على شدة الإيمان، ولذلك كان الأنبياء أشدّ الناس بلاءً، ثمّ الأمثل فالأمثل.

أمّا العقوبة فسببها الانحراف عن المنهج، وكلما زاد الفسق وكبُر حجم الانحراف، اشتدت العقوبة.

٤ ـ الابتلاء طريق للإمامة والتمكين، بينما العقوبة حرمانٌ منها، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤].

---

(١) بلونا بعضَ الحركيين ولا سيَّما الفتنة التي أشعلتها أيديهم في أحداث سوريا في أول الثمانينات الإفرنجية من القرن المنصرم، وجدناهم يُشعلون الفتنة وتَلهَجُ ألسنتهم بأحاديث الابتلاء! وهي عقوبة من الله ـ عز وجل ـ.

فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ جُعل للناس إمامًا لأنه نجح في كل ما ابتُلي به وامتُحن، بينما الذين يفشلون في ذلك يُحرمون هذه الإمامة، ولا ينالون ذلك العهد ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

٥ ـ إذا كانت التكاليف قائمة على الوسطية والاعتدال، فهي ابتلاء، أمّا إذا مالت عن الاعتدال، فهي جزاء وعقوبة للمكلف[2].

٦ ـ الابتلاء قد يكون علامة على حبّ الله للعبد ورضاه عنه، بينما العقوبة إشارة إلى غضب الله على العبد وعدم رضاه عنه.

٧ ـ الابتلاء يهدف إلى تجميع كلمة الأمة، وتمتين الروابط فيما بينها، أما العقوبة؛ فقد تكون سببًا في تشتيتها وضرب بعضها ببعض، وزيادة العداوة والبغضاء بين أفرادها.

وهذا ما كان في مسلمي بعض بلداننا ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[المائدة: ١٤].

«فإنّ الأماني والمحاولات العاطفية والجهود التي تعتمد المناسبات والمصالح الموسمية[3] أوهى من أن تقيم القاعدة الإسلامية الجادة أو تحفظ وحدتها، فما لم

---

(١) تأمّل شديدًا السرّ في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالنصب لا بالرفع، لتعلم سنةً لله ـ عز وجل ـ ماضية شاملة، لا يمكن لأحد أن يقف أمامها، فتطحنه وتبطحه!

(٢) انظر بسط هذه النقطة في: «الموافقات» (٢/ ١٦٣)، ففيه كلام نفيس للغاية.

(٣) أصبح يُلحق بها ـ للأسف ـ وُعود الكفّار للمسلمين بالنصر، ويعملون على الثورات، وتُسفك دماء ألوف مؤلفة من النفوس، والنتيجة: (وعدونا وأخلفونا)!!

نحتكم إلى الكتاب حقيقةً لا مظهرًا، بعد إسقاط كل القناعات الشخصية والموروثة من عصـور الصراع الإسلاميّ ـ الإسلاميّ، وما لم تكن كلّ قناعاتنا مستنبطة من الوحي محكومةً به، فلا أمل لنا بوحدة أو عمل أو خلاص».

٨ ـ الفرق بينهـما من حيـث العلاج، فالابتـلاء يحتـاج إلى الاستعانة بالله، والصبر، والتقوى، والرضا... وما إلى ذلك من أمور، أما العقوبة فتحتاج بالإضافة إلى ذلك إلى التوبة والاستغفار والاستقامة، وتصحيح المسار، ومواكبة سنن الكون والحياة.

❊ ❊ ❊

مَرَاتِبُ ٱلْفِتْنَة
مِن حَيْثُ مَسَاسُهَا بِٱلْمُكَلَّف

أخرج البخاريّ عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ كما قال. قال: هات! إنك لجريء. قال: قال رسول الله ﷺ: «**فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفّرها الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر**».

قال: ليست هذه، ولكن التي تموج كموج البحر. قال: يا أمير المؤمنين! لا بأس عليك منها، إنّ بينك وبينها بابًا مغلقًا. قال: يُفتح الباب أو يكسر؟ قال: لا، بل يكسر. قال: ذاك أحرى أن لا يُغلق!

قلنا: عَلِمَ الباب؟ قال: نعم؛ كَمَا أَنَّ دونَ غَدِ الليلةَ، إنّي حدثته حديثًا ليس بالأغاليط.

فهِبْنا أن نسأله، وأمرنا مسروقا فسأله، فقال: من الباب؟ قال: عمر[1].

وقبل أن نذهب بعيدًا، نذكّر بأنّ من الأمور التي كانت قائمةً في أذهان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والمقررة عندهم، أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ هو الباب الموصَد أمام الفتنة.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٨٦).

ولذا أسند أحمد بإسناد صحيح عن عزرة بن قيس، عن خالد ابن الوليد، قال: كتب إليّ أمير المؤمنين حين ألقى الشام بوانيه بَثَنِيَّةً وعسَلًا، ـ وشكَّ عفّان مرَّةً، قال: حين ألقى الشام كذا وكذا ـ، فأمرني أن أسير إلى الهند، والهند في أنفسنا يومئذ البصرة، قال: وأنا لذلك كارهٌ. قال: فقام رجل فقال لي: يا أبا سليمان! اتق الله! فإنّ الفتن قد ظهرت، قال: فقال: وابن الخطاب حيٌّ؟!! إنما تكون بعده! والناس بذي بِلِيَّانٍ ـ أو بذي بِلِّيَانٍ ـ، بمكان كذا وكذا، فينظر الرجل فيتفكّر، هل يجد مكانًا لم ينزل به مثل ما نزل بمكانه الذي هو فيه من الفتنة والشرّ فلا يجده، قال: وتلك الأيام التي ذكر رسول الله ﷺ بين يدي الساعة أيامُ الهَرْج، فنعوذ بالله أن تدركنا وإياكم تلك الأيام[1].

قال ابن الأثير: (بذي بِلِيَّان: أي إذا كانوا طوائف وفِرَقًا من غير إمام، وكل من بَعُدَ عنك حتى لا تَعْرف مَوْضِعَه فهو بِذِي بِلِيٍّ، وهو من (بَلَّ في الأرض) إذا ذَهَب، أراد ضَياع أُمور النَّاس بَعْده)[2].

إذن، الفتنة تبدأ عراقية ـ كما سيأتي ـ، وتنتهي عالمية، تنتهي بـ (ذي بليّان)، فيتفرق الناس، وكلٌّ ينظر في آخر الزمان فيتفكّر، هل يجد مكانًا لم ينزل فيه من الفتنة كما نزل ببلده الذي هو فيه، فلا يجد.

وأسند ابن عساكر عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ بأنّه نعت عمر بأنّه: (قفل الفتنة)! ورواه الطبراني في «الأوسط»[3] بإسنادٍ رجاله ثقات، قاله الحافظ[4].

---

(١) رواه أحمد (١٦٨٦٦).

(٢) «النهاية» (ص٩٠) باب: الباء مع اللام.

(٣) برقم (١٩٤٥).

(٤) «فتح الباري» (٦/ ٦٠٦).

ولنرجع إلى الحديث السابق الذي فيه المحاورة بين عمر وحذيفة ـ رضي الله عن الجميع ـ، فهذا الحديث يدلّ على أنّ السلف ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يفهمون أنّ الفتنة من حيث مساسُها بالمكلّف وتعلّقها به على ضربين، وعلى مرتبتين:

الضرب الأول

فِتْنَةٌ لَا تَنفَكُّ عَنِ ٱلْإِنسَانِ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

وهذا الضرب من الفتنة، كما قال ابن المنيّر:

«الفتنة بالأهل تقع بالميل إليهن أو عليهن في القسمة والإيثار، حتى في أولادهن، ومن جهة التفريط في الحقوق الواجبة لهن، وبالمال يقع بالاشتغال به عن العبادة أو بحبسه عن إخراج حق الله، والفتنة بالأولاد تقع بالميل الطبيعي إلى الولد، وإيثاره على كل أحد، والفتنة بالجار تقع بالحسد والمفاخرة والمزاحمة في الحقوق وإهمال التعاهد».

ثم قال: «وأسباب الفتنة بمن ذكر غير منحصرة فيما ذكرت من الأمثلة، وأما تخصيص الصلاة وما ذكر معها بالتكفير دون سائر العبادات، ففيه إشارة إلى تعظيم قدرها، لا نفي أن غيرها من الحسنات ليس فيه صلاحية التكفير، ثم إنّ التكفير المذكور يحتمل أنْ يقع بنفس فعل الحسنات المذكورة، ويحتمل أنْ يقع بالموازنة، والأول أظهر، والله أعلم»[1].

واختلف الشُّراح في الجملة في هذه المكفِّرات: هل هي على وجه الحصر أم هي على سبيل التمثيل؟ وهل هذه المكفّرات الثلاث جرت على لسان النبي ﷺ

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٦٠٥).

مجرى اللفّ والنّشر[1] الذي يذكره أهل البلاغة؟

فكفارة الرجل في أهله: الصلاةُ وأمرهم بالصلاة، وكفارة الرجل في ماله: الصدقة، وكفّارة الرجل في جيرانه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون هذه الأسباب المكفرة لفتن ثلاثٍ مذكورة، وكل فتنة يقابلها مكفّر من هذه المكفّرات، فمنهم من حمل الحديث على هذا المعنى.

ومنهم من عمّم المعنى، فقال: الصلاة مثالٌ على العبادات البدنية، والصدقة مثال على العبادات المالية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثال على العبادات القولية، فإنّ جميع العبادات تكفّر الفتن.

ولكلٍّ في معنى هذا الحديث وِجهة، والخلاف يسير.

والمقصود أنّ هذا النوع الذي ذكره حذيفة ـ رضي الله عنه ـ ابتداءً من الفتن واقعٌ بالإنسان في أي زمان ومكان، كل من كان قد كلفه الشرع بواجب فهو مفتون، فإن أدّاه فإن الله عز وجل قد يسّر له النجاة، وإلّا فإنّه مسؤولٌ عنه ومأخوذٌ به يوم القيامة، إلّا ما شاء الله.

* * *

الضرب الثاني

فِتْنَةٌ تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَصِفَتُهَا أَنَّهَا تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ

فقد سمعنا في الحديث أنّ حذيفة لـمّا سمع تعقيب عمر بقوله: (هات، إنّك

---

(١) اللف والنشر: هو ذكر متعدِّدٍ على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيينٍ؛ ثقة بأنّ السامع يرده إليه. انظر: «مختصر المعاني» لسعد الدين التفتازاني (ص٢٥٥) وما بعدها.

لجريء)، تحوّل من الإخبار عن الفتنة من الضرب الثاني الذي يسأل عنه عمر إلى الضرب الأول، وهو الفتنة التي لا تنفك عن الإنسان في أي زمان أو مكان، فقال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «فتنة الرجل في أهله وماله وجاره، تكفِّرها الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

فردّه عمر إلى جواب السؤال الذي يريد، فأراد منه أن يتكلم عن الفتنة التي تكون في آخر الزمان، فقال عمر ـ متعقبًا حذيفة ومنبِّهًا إياه أنه يسأل عن الفتنة بالمعنى الثاني لا الأول ـ، قال عمر: «ليست هذه، ولكن التي تموج كموج البحر».

وحديثنا ليس عن الضرب الأوّل من الفتن، وإنما حديثنا عن الضرب الثاني، عن الفتن التي فرّقت الأمة، فضلّت فيها أفهام، وزلّت فيها أقدام، وتبعثرَت فيها أنظار، وأصبح بعض الأعلام من أصحاب الحديث والمحسوبين على العلم، بل على المنهج، أصبحوا في بعض الأماكن وفي بعض المناسبات والملابسات والتداعيات والأمور الخفيات، يخوضون في الفتنةِ بفتنة، وما وقع، وما يقع، وما شاهدناه وسمعناه من فتنة سوريا الجريحة دليلٌ ظاهر واضح جليّ على هذا الأمر.

إذن، الفتنة تموج كموج البحر، وأمواجها كالرياح كما في «صحيح مسلم» عن حذيفة، منها الطويل ومنها القصير، ريح كريح الصيف.

فقد أخرج مسلم عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: «والله إني لأعلم الناس بكلّ فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسرّ إلي في ذلك شيئًا لم يحدّثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدّث مجلسًا أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يعدّ الفتن: «**منهنّ ثلاثٌ لا يَكَدْنَ**

يَذَرْنَ شيئًا، ومنهنّ فتنٌ كرياحِ الصّيف، منها صغارٌ ومنها كبار»». قال حذيفة: «فذهب أولئك الرهط كلّهم غيري»[1].

فشبهها برياح الصيف «لتفاوت زمنها، وسرعة مجيئها وذهابها، وكذلك التفاوت في الشدة، والآثار التي تحدثها، والله أعلم»[2]، و(الفتن التي تموج موج البحر) هن اللاتي «لا يكدن يذرن شيئًا»، وهن (الفتن العامة) الواردة في جملة من الآثار، ويمتاز هذا النوع بأن شرَّها يصل إلى جميع الناس، وتصيدهم كالأنعام.

ومن هذا النوع: الفتن التي تدخل بيت كل مسلم، قيل فيها: هي واقعة التتار، إذ لم يقع في الإسلام، ولا في غيره مثلها! كذا في «فيض القدير»[3].

وأقول: واقعة التتر مفردة من مفرداتها، وإلا فهي كثيرة، وقد تدخل الفتن الخاصة ببلدة معينة صغيرة، تخص فئة، أو عامة تشمل الناس جميعًا.

والفتن العامة، عاصفة، تموج وتضطرب، كما يموج البحر ويضطرب عند هيجانه، ويدفع بعضه بعضًا، ولا يمكن لأحد الوقوف أمامها، وقد لا ينجو منها إلا من اعتزلها، ولذا وصفت في بعض الآثار الآتية بأنها (صماء عمياء مطبقة)، ذلك أن هذا النوع من (الفتن) إن وقع تكون له (ظُلل)، ولذا جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره عن كُرْز بن علقمة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله! هل للإسلام من منتهى؟ قال: «**أيما أهل بيت** ـ وقال في موضع آخر: قال: نعم، أيُّما أهل بيت ـ **من العرب أو العجم، أراد الله بهم خيرًا،**

---

(١) رواه مسلم (٢٨٩١).

(٢) «الفتن والآثار والسنن» (ص٥٤ ـ ٥٥).

(٣) (٤/ ٩٥).

أدخل عليهم الإسلام». قال: ثم مه؟ قال: «**ثم تقع الفتن كأنها الظُّلَل**»، قال: كلا، والله إن شاء الله. قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، ثم تعودون فيها أَسَاود صُبًّا يضرب بعضكم رقاب بعض، فخير الناس يومئذٍ: مؤمن معتزل في شعب من الشعاب، يتقي الله، ويذر الناس من شره**»، وهو **صحيح**[1].

ففي هذا الحديث فائدة مهمة، وهي أن الفتن تقع وكأنها (الظُّلَل) وهي السحاب، تحيط بالناس من كل جهة، وأن الناس سيضرب بعضهم رقاب بعض، كما تنصبُّ وترتفع الحية السوداء على الملدوغ فتلدغه، وهذا تفسير سفيان عند أحمد، وكذا شيخه الزهري، عند الحميدي والبيهقي وابن عبد البر.

فالفتن لها ظُلَل تنال من دين الخائض فيها، ولا سيما وهي (سوداء) و(عمياء) و(مطبقة) لا يظهر لها قُبُلٌ من دُبُر، ولا ظهرٌ من وجه، وكأنها حيات مصبوبة على الناس من السماء. وأساود: حيّات، جمع أسود، إذا أرادت أن تنهش ارتفعت هكذا، ثم انصبّت.

وقال القرطبي في «التذكرة»[2] نقلًا عن ابن دحية: «وهو الذي يميل ويلتوي وقت النهش، ليكون أنكى في اللدغ وأشد صبًّا للسُّم» اهـ، وشبهت بها الفتن لشدة سوادها وكثرتها، وعظم شأنها، وأنها يتبع بعضها بعضًا، فهي متراكمة كالظلل.

وأكثر ما يظهر ذلك عند تقاتل المسلمين، وسفك بعضهم دماء بعض، كما حصل في سلسلة الحروب التي ظهرت في (العراق)، وانقسم المسلمون على إثرها

---

(١) كما في «السلسلة الصحيحة» (٥١).

(٢) (٦٢٥).

إلى مؤيد ومعارض، وخيمت الفتنة فترة من الزمن، وظهرت شجاعة المسلمين على بعضهم البعض، وهم أذلَّاء جبناء مع عدوهم، فإلى الله المشتكى، ولا قوة إلا بالله العظيم!

فهذه الأمواج تصل الناس في كل مكان، وهم في بيوتهم وفي أعمالهم، فمنهم المحصّن الذي يَخْبَر الفتنة ويفهم الكليات، لأنّنا لا نريد من الأمة أن تفهم الفتنة فهمًا مفصلًا، بمفردات ما أخبر عنه النبي ﷺ، فإنّ هذا للعلماء، وإن كان أداء الواجب الكفائي في الكلام عن الفتنة ضعيفًا، ودون المستوى الذي تحصل به الكفايةُ بكثير، والأمة آثمة بسبب ذلك.

والفضائيات تتابع الإعلام الغربي[1] وتترك الحديث النبويّ، ولم تحصّن مستمعيها ومشاهديها من الفتن بما جاء على لسان المعصوم ﷺ، ولم تبصّرهم بما أخبر عنه من ذلك، فكانت عذابًا ووبالًا، وزادت الدم إراقةً، والنفوس إزهاقًا، وإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(١) الزعم بوجود تأثير للإعلام الإسلامي يحتاج إلى براهين، مع ضرورة تقوية إمكانات الموجود، مع رسم خطط فيها تكامل بين العاملين في هذا المضمار، ويجب أن تكون للقنوات الفضائية مرجعية علمية، ويجب إعطاء الدعاة مقدارهم دون تملق، مع وجوب تعليق الناس بالعلماء الربانيين، والواجب إبعاد مظاهر الخرافة، كتأويل المنامات التجاري، والقائم على غير أصول شرعية، وما زلنا بحاجة إلى مؤتمرات هادفة، وتحصين من الداخل، والله الواقي والعاصم.

زَمَنُ ٱلفِتْنَة وَمَكَانُها ونَشْأتُها وَٱشْتِدَادُهَا وَآخِرُهَا

أخرج الإمام أحمد[1] عن مسلم بن أبي بكْرة، عن أبيه: أنّ نبي الله ﷺ مرّ برجُلٍ ساجد ـ وهو ينطلق إلى الصلاة ـ، فقضى الصَّلاةَ، ورجع عليه وهو ساجد، فقام النبي ﷺ فقال: «**من يقتل هذا؟**» فقام رجل فَحَسرَ عن يديه فاخترط سيفه وهزَّه، ثم قال: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي، كيف أقتل رجلًا ساجدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؟ ثم قال: «**من يقتل هذا؟**» فقام رجل فقال: أنا. فحسر عن ذراعيه واخترط سيفه وهزَّه حتى أُرْعدت[2] يده، فقال: يا نبي الله! كيف أقتل رجلًا ساجدًا يشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا عبده ورسوله؟ فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده! لو قتلتموه؛ لكان أول فتنة وآخرها**».

وللحديث شاهد من حديث أنس نحوه، وفيه: أنّ الرجل الأول الذي قام لقتله هو أبو بكر، والثاني عمر، وزاد: «فقال رسول الله ﷺ: «**أيكم يقوم إلى هذا فيقتله؟**» قال علي: أنا. قال رسول الله ﷺ: «**أنت له إن أدركته**». فذهب علي فلم يجده، فرجع، فقال رسول الله ﷺ: «**أقتلت الرجل؟**» قال: لم أدْرِ أين سلك من

---

(١) «المسند» (٥/ ٤٢)، وله طُرق هو بمجموعها **صحيح** ـ إن شاء الله ـ، وقد تكلّمت على تخريجه في كتابي «العراق في أحاديث وآثار الفتن» (١/ ٥٣ ـ ٥٤)، فلتُراجع.

(٢) أُرعدت ـ بالبناء للمجهول ـ أي: اضطربت.

الأرض، فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ هـذا أوَّلُ قِرْنٍ**[1] **خرج من أمتي، لو قتلته ـ أو قتله ـ ما اختلف من أمتي اثنان**».

فهذا الحديث يفيد البداية والمنشأ، والحديث السابق الذي فيه محاورة عمر وحذيفة ـ رضي الله عنهما ـ، فيه: لو مات عمر من غير قتل، لهبَّت فتن، ثم أقلعت، وبابها ينغلق، أما إنْ قُتِل، فإنَّ باب الفتن سيبقى مفتوحًا على مصراعيه! فهو يفيد الاشتداد والموج.

أما النهاية، فقد أُشير إليها في الطريق الأخيرة من حديث أنس المُشار إليه في حديث الرجل الذي أُريدَ قتلُه، وفيه: «**لو قتل اليوم ما اختلف رجلان من أُمتي حتى يخرج الدَّجَّال**»[2].

وجاء التصريح في حديث آخر صحيح، أنّ الفتن جميعها ما صُنِعت ووجدت إلا لفتنة الدجال.

فقد أخرج أحمد[3]، والبزار في «مسنده»[4]، وابن حبان[5]، والطبراني مختصرًا في «الكبير»[6] من طرق عن الأعمش، قال أحمد: عن أبي وائل عن حذيفة. وقال الباقون: عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن حذيفة، قال: ذُكر

---

(١) القِرْن ـ بكسر القاف وسكون الراء ـ: المقاوِمُ لك في أيّ شيءٍ كان.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٦/ ٣٤٠) برقم (٣٦٦٨)، وعزاه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٦٠٧ ـ ٦٠٨) لابن مردويه.

(٣) «المسند» (٥/ ٣٨٩).

(٤) «مسند البزار» (٢٨٠٧) و(٢٨٠٨).

(٥) «صحيح ابن حبان» (٦٨٠٧).

(٦) «المعجم الكبير» (٣٠١٨).

الدجال عند رسول الله ﷺ، فقال: «**لأنا لفتنةٍ بعضكم أخوفُ عندي من فتنة الدَّجال، ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها، وما صُنِعت فتنةٌ ـ منذ كانت الدنيا ـ صغيرةٌ ولا كبيرة إلا لفتنة الدَّجال**».

هذا لفظ أحمد **وإسناده صحيح** إن كان الأعمش سمعه من أبي وائل.

وهذا يفيد أنّ الفتن سلسلةٌ آخذةٌ كل حلقةٍ بأختها، حتى تتصل بفتنة الدجّال، والذي خشيه عليها نبيُّنا ﷺ (فتنة بعضنا) من البغي، والظلم، والقتل، وهذا الذي بدأ زمن (الخوارج)، الذين خرجوا من ضئضئ ذاك الرجل، الذي لو قُتِل، لكان أول فتنة وآخرها؛ كما قال النبي ﷺ.

وأمّا مكان الفتنة في العصر الأول الأنور كان في المشرق، وتحديدًا كان في العراق، وقد أخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قام النبي ﷺ خطيبًا فأشار نحو مسكن عائشة، فقال: **هنا الفتنة ـ ثلاثًا ـ، من حيث يطلع قرن الشيطان**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣١٠٤) (كتاب الخمس ـ باب: ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ وما نسب من البيوت إليهن). وهذا الحديث ممّا حرّفه الروافض تحريفًا بيّنًا، فقد أورده بعضهم بلفظ: (فأشار إلى مسكن عائشة) فحذف كلمة (نحو)! حرصًا منهم ـ لما في قلوبهم من المرض ـ على الإيحاء بأنّ بيت أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ هو المقصود بمخرج الفتنة، ومن هؤلاء: عبد الحسين شرف الدّين في كتابه «المراجعات» (ص٤٢٤) والتيجاني السماوي في كتابه «فاسألو أهل الذكر» (ص١٠٥ ـ ١٠٦)، وغيرهما.

وهذا الباطل المفضوح! يردّه ما لا يحتاجُ إلى كُلفةٍ في فهمه عند كلّ من نظر في حديث عبد الله بن عمر الآنف الذكر بكل رواياته، والتي منها ما يبيّن أنّ المقصود هو ناحية بيت عائشة وجهته، لا ذات البيت، ومن المعلوم أنّ النبيّ ﷺ كان إذا وقف على منبره فإن بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ يكون إلى يمينه إذا استقبل الناس بوجهه الشريف، =

الفتنة تَبلُغ مداها وتعلو أمواجها لما يكثر الهرج ـ القتل ـ في المجتمعات:

أخرج أحمد في «المسند» **بإسنادٍ صحيحٍ** عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُنَا أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الهَرْجَ. قِيلَ: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: «**الكَذِبُ وَالقَتْلُ**». قَالُوا: أَكثَرَ مِمَّا نَقْتُلُ الآنَ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيسَ بِقَتْلِكُم الكُفَّارَ، وَلَكِنَّهُ قَتْلُ بَعْضِكُم بَعضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَيَقْتُلَ أَخَاهُ، وَيَقْتُلَ عَمَّهُ، وَيَقْتُلَ ابْنَ عَمِّهِ**». قَالُوا: سُبْحَانَ الله! وَمَعَنَا عُقُولُنَا؟ قَالَ: «**لَا؛ إِلَّا أَنَّهُ يَنْزِعُ عُقُولَ أَهْلِ ذَاكَ الزَّمَانِ، حَتَّى يَحْسَبَ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ**»[1].

أشد فتنة على الأمة المحمدية الفتنة العراقية، والفتنة العراقية تمتاز بميزة لا تشترك مع غيرها من الفتن، فهي تمتاز بأنها تقبل التثوير والتصدير، ففي «حلية الأولياء» وغيره عن عبد الله بن عمر **بإسناد صحيح**، قال النبي ﷺ: «**اللهم بارك لنا في مكّتنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في شامنا، وبارك لنا في**

= وتلك الجهة هي جهة المشرق، كما جاء في صحيح البخاري (٣٢٧٩) ومسلم (٢٩٠٥) عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق، فقال: (**ها إن الفتنة ها هنا، إن الفتنة ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان**). وفي لفظ مسلم: (وهو مستقبلُ المشرق...)، ولكن طائفة الروافض المخذولة لا تُحسن سوى الكذب من أجل نُصرة الباطل، وهيهات! فهم مكشوفون لمن عنده أدنى مُسكةٍ من عقل، كما قال الإمام الذهبيّ ـ رحمه الله ـ: (لا حيلةَ في بُرْءِ الرفض!) ومما شاع عند أهل العلم أنّ الرفض والكذب توأمان، كما في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٣٧) في ترجمة سهل بن أحمد الدّيباجي... قال الذهبي: (رُمي بالأخَوَين؛ الرفض والكذب).

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣٢/ ٤٠٩) و**صححه** شيخنا في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٨٢).

صاعنا، وبارك لنا في مُدِّنا، فقال رجل: يا رسول الله! وفي عراقنا. فأعرض عنه، فرددها ثلاثا، كل ذلك يقول الرجل: وفي عراقنا، فيعرض عنه، فقال: **بها الزلازل والفتن، وفيها يطلع قرن الشيطان**»[1].

لذا فالفتنة العمياء التي عصفت بالجزائر، والفتنة التي فيها تكفير وتثوير، ويترتب عليها تقتيل وتفجير، إنما أصلها ومنبعها فتنة العراق، وهي الفتنة الباقية إلى يوم الدين[2] (فتنة الخوارج)، فإياك أن تظن أن فتنة الخوارج فتنة مضت وانتهت، وإنما هي باقية إلى يوم القيامة.

وممّا ينبغي أن نبيّنه لزامًا، أنّ النبيّ ﷺ ذكر الفتن التي سيكون مبدأها من

---

(١) انظر تخريجه في: «الصحيحة» (٢٢٤٦) لشيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

(٢) أخرج ابن ماجه في «سننه» (١٧٤) بإسنادٍ حسن عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: (**ينشأ نشءٌ يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرنٌ قُطِعَ**). قال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**كلما خرج قرن قطع**) أكثر من عشرين مرة. (**حتى يخرج في أعراضهم الدجال**).

من سنن الله ـ عز وجل ـ التي أخبرنا عنها نبيُّنا ﷺ أنَّ الخوارج لا يندثرون إلى يوم الدين، ويظهرون بين الحين والحين ، فالنبي ﷺ قال عنه: «**قُطِع**»، والنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ما قال: (قطعه العلماء)، ولا قال: (قطعه الأمراء) ولا (الملوك) ولا (المجاهدون)، قال: «**قُطِع**»؛ أي: بتدبير الله ـ عز وجل ـ ، كيف يدبِّر الله ـ عز وجل ـ القطع؟ لا ندري! لكن لابد كلما ظَهر قرنٌ للخوارج أن يُقطع.

ومن معجزات النبي ﷺ أنه قال عن الخوارج: «**يقتلون أهل الاسلام، ويدعون أهل الأوثان**». رواه البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤).

لم يقل: (يقاتلون)، بل قال: «**يقتلون**»؛ يتربَّصون اللحظات والأماكن الحرجة الصعبة العسرة، فيَختَلون بالبرآء فيقتلونهم ويذبحونهم.

العراق، لأجل التحذير منها والتنبيه عليه والتهيئة لها، لا لأجل إلحاق الذمّ بالعراق من كلِّ وجهٍ، حتى يُطردَ هذا الذمُّ ليُجعلَ في كلِّ من في العراق من المؤمنين والصالحين والعلماء، فهذا لا تدلّ عليه النّصوص، ولا هو مقصودٌ لأحد.

فـ«إنه لا يقول مسلم بذم علماء العراق لما ورد فيها، وأكابر أهل الحديث، وفقهاء الأمة، وأهل الجرح والتعديل أكثرهم من أهل العراق»[1].

و«الفضل والتفضيل باعتبار الساكن يختلف وينتقل مع العلم والدين، فأفضل البلاد والقرى في كل وقت وزمان أكثرها علمًا، وأعرفها بالسنن، والآثار النبوية، وشر البلاد أقلها علمًا، وأكثرها جهلًا وبدعة وشركًا، وأقلها تمسّكًا بآثار النبوة، وما كان عليه السلف الصالح، فالفضل والتفضيل يعتبر بهذا في الأشخاص والسكان»[2].

* * *

(١) «مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام» (٣٣٦) لعبد اللطيف آل الشيخ.

(٢) «منهاج التأسيس والتقديس» (٩٢) لعبد اللطيف آل الشيخ.

وُكَلَاءُ ٱلْفِتْنَة

وكلاء الفتنة ثلاثة أنواع من الناس، والدليل على ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبه وغيره **بسند صحيح** عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ، قال: (وكلت الفتنة بثلاثة؛ بالحادِّ النّحرير، الذي لا يريد أن يرتفع له شيء إلا قمعه بالسيف، وبالخطيب الذي يدعو إليه الأمورَ، وبالشريف المذكور، فأمّا الحادّ النحرير فتصرعه، وأمّا هذان فتبحثهما فتبلو ما عندهما)[1].

فالحادّ النحرير الذي لا يرتفع إليه شيء إلا قمعه بالسيف، هو العنصر الأهمّ في الفتن التي تنال من دماء المسلمين، والحاد النّحرير ذكر خبره ابن الأثير في «النهاية» وعرّفه بأنّه الفَطِنُ البصير بكلّ شيء، ويعبّر النّاس عنه اليوم بـ(الذكيّ).

فهذا يقف ويحمل السيف على أخيه، ويقول له: سأقتلك، ثم بعد ذلك عشرات الألوف من الأرواح تزهق، ثمّ يقول لك: أخطأنا، وأسأنا تقدير الموقف، قدّرنا أنّ الدول الكبرى معنا، لكن تبيّن لنا أنها لم تكن معنا! فكم من الفتن التي مات فيها عشرات الألوف، وأرواحهم في ذمة (الحادّ النحرير)، فتفحّص كل الفتن التي جرت من حولنا تجد هذا الصنف، موجودًا في فتنة الجزائر إلى فتنة

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٨٢٩٠) وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٢٨).

العراق سابقًا، وفتنة سوريا لاحقًا، وفتنة مصر حاليًّا.

(وبالخطيب الذي يدعو إليها): وما أكثر الخطباء، وما أعجبَ التزويق، ولا سيما لـمَّا تنتشر الصور، ويؤتى بما يثوِّر ويجعل الجماد ينطق، ويجعل من لا قلب له يبكي على ما يرى، وتكون الأمور مدروسة ووراءها مهندسو إعلام، وزخارف تسرق القلوب والعقول، هذا الخطيب له مآرب عديدة، والفضائيات العديدة التي تكون من محاضن الفتنة ومصانعها؛ من أهم المعزِّزَاتِ التي يعتمد عليها هؤلاء الخطباء.

(وبالسيد ـ وفي رواية: الشريف ـ): وهو الذي له مكان مرموق في المجتمع، من ذوي الأسماء اللامعة، والمعروفة بالعلم والصدق والأمانة والأثر في النّاس.

قال حذيفة: (فأما الحادّ النحرير فتصرعه)؛ أي: تبطحه على وجهه كما جاء في روايةٍ أخرى.

يا عباد الله! ألم يغرّر بكم الإعلام عشرات المرات؟ أولم يقل نبيّكم ﷺ: (**لا يلدغ المؤمن من جحر واحدٍ مرتين**)[1]؟ أما سمعتم في الإعلام ما تعلمون أنّه كذبٌ وزورٌ وتهويلٌ؟ وإن تجلّت لكم الحقائق بعد فوات الأوان في بعض المناسبات؛ أما ينبغي أن تنتبهوا وألّا تغركم ظواهر الأمور؟

في رواية أبي نعيم في «الحلية»[2]: «**فأمّا هذان فتبطحهما لوجوههما**»! وهما الحادّ النحرير والخطيب الذي يدعو إليها، وهذا الخطيبُ الذي هو أحد الأدوات

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٣) ومسلم (٢٩٩٨).

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٤).

الإعلامية، وأحد الوكلاء المهمّين في الترويج لها، بعد أن تنجلي الأمور وتنكشف الفتنة، لو أنّ فيه بقيّة حياءٍ لما استطاع أن يخرج إلى النّاس ولا يراهم.

فهذان الصنفان من مهندسي الفتنة فمن تحت قدميهما مبعثها، فهم الذين يعلمون بحالها وهم صُنّاعها، وهم يعلمون ما لا يعلم سائر الناس من الخفايا، ويعلمون أشياء لو كان العوامّ يعلمونها ما استجابوا لهم ولا تابعوهم.

وأمّا الثالث وهو السيد الشريف فمسكين، غرَّته ظواهر الأمور، فهذه الفتن تبحثه وتجعله يتأمل، حتى يظهر ما عنده من حبّ الحقّ، فإن كان طيبًا مؤثرًا للحقّ فسيظهر معدنه وإيثاره للحقّ، وسيضحّي بسيادته وشرفه في النّاس، ولا يتابعُ الدّهماء وإن أرادوه على ذلك، وأمّا إن طغى على نفسه التمسّك بموقعه بين النّاس، واهتمّ بأن لا يُعاب على عدم مشاركته وخوضه فيما يغرق فيه النّاس ويتقلّبون فيه من الفتنة، فإنّ تيّار العامّة يغلبه، ويخوض فيها، ويتقلّب فيها معهم ظهرًا لبطنٍ، ويتخلّى عمّا ظهر له من الحقّ في سبيل شرفه وسيادته ومكانته في النّاس، فتكون الفتنة قد كشفت عن معدنه وأظهرت حقيقته.

فأوّل الذين توكّل بهم الفتنة إذن: النحرير، وتوكل الفتنة به إنْ كان حادًّا غير حليم، ولا أناة عنده، يريد الخير بمجرد وقوفه ومعرفته له، من غير اتباع منهج السلف ولا سنة الله ـ عز وجل ـ في التغيير، ودون النظر إلى مآلات الأفعال، وعواقب الأمور، التي لا يجوز لأحد أن يستشرف الفتنة، ولا يخوض فيها دون ذلك.

وتشمل كذلك المعجبين به، وبتقريراته، وأطروحاته، فيشاركون فيها، بشرفهم وسيادتهم، وبألسنتهم وخطبهم، ومقالاتهم ومؤلفاتهم ونشراتهم وصحفهم وهيآتهم، فتختبرهم الفتنة، وتبلو ما عندهم، فالخطيب والداعي لها أقرب منها

من الشريف المعجب الذي بهرته الزخارف، وغرَّتـه الشعارات، ولعله إنْ تأمَّـل وتحلّم، ونظر، وفكر، وتدبّر، وقدّر؛ يخلص منها، إنْ تداركته رحمة مولاه، وخرج عن داعي هواه.

* * *

بِيئَةُ الفِتْنَةِ وَمَحَاضِنُهَا

إذا أردنا أن نأخذ عيِّنة من الفتنة، وأن نفحص البيئة التي تعيش فيها، وتفرّخ وتنمو، وكيف يعقد نوّارها، فالفتنة إنما تكون في بيئةٍ جاء بيانها مجملًا في «الصحيحين»[1] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتقارب الزمان، ويُقبض العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشُّحُّ، ويكثر الهَرْج**». قالوا: وما الهرج؟ قال: «**القتل**».

وعند التفصيل نجد أنّ ما دلّت عليه النصوص بكونه من محاضن الفتنة التي ينعقد فيها نوّارها، نجد الفتنة تنمو وتشتدّ:

أَوَّلًا ـ عِنْدَ ٱلْخِلَافِ وَٱلافْتِرَاق:

قوله ﷺ: «**يتقارب الزمان**» دلالة على نزع البركة، والبركة والفتنة نقيضان؛ إن وجدت البركة زالت الفتنة، وإن رُفعت البركة حلَّت الفتنة، وإن لم تحل الفتنة فإنما تَحلُّ مقدماتُها ويبدأ نُوارها بالانعقاد.

النبي ﷺ يقول: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تكونُ السَّنةُ كالشَّهرِ، والشَّهرُ كالجُمُعةِ،**

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٧، ٧٠٦١) ومسلم (١٥٧) في كتاب العلم، واللفظ له، ولفظ البخاري: «**يتقارب الزمان، وينقص العمل**،...».

والجمعةُ كاليَومِ، واليومُ كالسَّاعة»[1].

ففي آخر الزمان السنة تمضي كأنها شهر، والشهر يمضي كأنه يوم، واليوم يمضي كأنه ساعة، فتقل البركة، والبركة في الجماعة كما يقول النبي ﷺ: «**البركة في ثلاثة**» وذكر من بين ذلك: «**الجماعة**»[2]، والبركة في اتحاد الكلمة، والبركة أن يجتمعَ الناس على أولياءِ أمُورهم من العُلماء والأمراء والحكام ولا يفترقون، فوجود الاجتماع والائتلاف سبب من أسباب القضاء على الفتنة.

الفتنة تبدأ بخلاف، والخلاف عندما يكون في العقول والقلوب يشتد ويقوى، وأكبر مَعْلَمٍ لظهور الفتنة في آخر الزمان إنما هو الهرج؛ وهو القتل وسفك الدماء، فإذا حصل القتل وسفك الدماء، فالفتنة تكون قد تجسدت بكل قواها وبجميع معانيها، تجسدت بعد تداعيات وأمور سابقات، فإنها تبتدئ بالخلاف.

صحّ عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ وهو يخبر عن الفتن الكبيرة في الأمة أنّه قال: «أوّل الفتن قتل عثمان بن عفان، وآخر الفتن خروج الدجال»[3]، وقتل عثمان قد سبقه الخلاف.

وفي حديث العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال، قال رسول الله ﷺ: «**إنّه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا**»[4]، ففي هذا دليلٌ على أنّ الاختلاف

---

(١) رواه أحمد (١٠٥٦٠)، وقال ابن كثير: «إسناده على شرط مسلم».

(٢) انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٤٥).

(٣) أخرجه أحمد بن مروان الدّينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٢٨٦ ـ بتحقيقي)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٤٤٧)، وأورده المحبّ الطبري في «الرياض النضرة في مناقب العشرة» وعزاه للحافظ السِّلفي.

(٤) رواه أحمد (١٧١٨٤) والترمذي (٢٦٧٦) وغيرهما. وتمامه: «**فعليكم بسنتي، وسنة** =

في زمن النبي ﷺ إنما هو خلاف تنوع، وخلاف رحمة، وليس خلاف فتنة، وإنّما خلاف الفتنة يبدأ بعد زمن النبيّ ﷺ، لأنّه قال: «**إنه من يعش منكم، فسيرى اختلافًا كثيرًا**».

ولذا فالنبي ﷺ لما ذكر هذا الداء ذكر دواءه، فدواءه الفهم الصحيح والسديد، وما من داء إلا جعل الله له دواء، فقوله: «**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا**»، هذا هو الداء، وأمّا الدواء فهو تتمّة الحديث: «**فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء المهديين الراشدين من بعدي**». ثمّ قال: «**عضّوا عليها بالنواجذ**»، ولم يقل: (عضّوا عليهما)؛ ذلك لأنّنا في وقت الفتنة نحتاج إلى الثوابت العملية من دين الله ـ عز وجل ـ، فالنبي ﷺ بعد أن ذكر سنته ذكر سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده قال: «**عضوا عليها**»، ولم يقل: عضوا عليهما، لأنهما شيء واحد.

عندما تتمزّق وتتفرق القوة المادية والمعنوية في الأمة، كحال اليوم، فالفُرقة الواقعة فيه ليست بين العلماء والحكام فحسب، بل الفرقة بين كل الشرائح والطبقات والفئات التي يجب عليها أن تكون متكاملةً لا متآكلة، ومتعاونةً لا متضادّة، حتى وُجدت الفُرقة بين العلماء وتلاميذهم، وبين الحكّام ومساعديهم.

فالخلاف وعدم توفّر بُعد الأفق في الائتلاف، مع غياب التأصيل الشرعيّ الصحيح لهذا المفهوم الشريف، كلّ هذا من أسباب تفريخ الفتنة، التي ينعقد نوّارها في هذا المناخ.

فالنبي ﷺ أمرنا عند وقت الفتنة، وشدد علينا في زمن الخلاف أن لا ننازع الأمر أهله، فقال: «**وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة**

= **الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنّ كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة**».

الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1].

فكم من فتنة أصابتنا بسبب مخالفة أمر النبيِّ ﷺ، فنزعم التديُّن ونحن نريد الدنيا، ونستمطر الدنيا علينا، فنريد المناصب والمكاسب والرواتب، ونريد متاعَها وحُطامَها، وننازع ونقاتل أهل الحل والعقد والحكّام؛ ننازعهم باسم الدين الذي يُتّخذ مطية للمنازعة على الدنيا، وللخروج من هذا قال النبي ﷺ في آخر هذا الحديث: «**اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشيٌّ كأن رأسه زبيبة**»[2].

قال أهل السياسة الشرعية: يشترط في الحاكم شروط، هي:

أولًا: أن يكون حرًّا.

ثانيًا: أن يكون عربيًّا.

ثالثًا: أن يكون ذا هيئة حسنة.

ففي هذا الحديث السابق يأمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة لعبدٍ، أي: ليس بِحُرٍّ، وحبشيٍّ، أي: ليس عربيًّا، ورأسه كالزبيبة، فهو ليس ذا هيئة حسنة.

في وقت الفتنة، الذي يقوّي نفَسَها ويمدّ في انتشارها ويوقد لهيبَها وحرَّها، إنما هو منازعة أهل الحكم حكمَهم.

وفي الحديث الذي يرويه عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، يقول النبيّ ﷺ: «**فمن أحب أن يزحزح عن النار**

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (١٧١٨٤) والترمذي (٢٦٧٦) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٧١٤٢) عن أنس.

ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

قال عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة: فدنوت منه، فقلت له: أنشدك الله! آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه، وقال: سمعته أذناي، ووعاه قلبي[1].

فالواجب علينا في كل وقت أن نصبر على الجماعة، فمن أسباب النجاة من الفتنة أن تعامل الناس في زمن الفتنة بالفضل لا بالعدل، فتؤدي إلى أصحاب الحقوق الذي عليك، وتسأل ربك الذي لك.

كما أنّه يجب علينا في وقت الفتنة أن نجتمع على الأمراء، ولا يجوز لنا أن ننابذهم، وحتى ننجو من الفتنة لا بد من أن نعتزلها، وأن لا نعرض أنفسنا لها، فإن الفتنة من استشرفها استشرفته، ومن تعرض لها أخذته، يقول النبي ﷺ: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله! إنّ الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتّبعه مما يبعث به من الشبهات** ـ أو: لما يبعث به من الشبهات ـ»[2].

والذي نفسي بيده! أنني منذ ميَّزت وأدركت، ورزقني ربي فهمًا ـ أو شيئًا من فهمٍ ـ في كتابه وسنة نبيه ﷺ، في جميع الأحداث التي مرَّت بالأمة منذ وعيي، ما جال في خاطري إلا الذي وقع ورأيت، ولا أقرأ جريدة، وغير مفتون بفضائية، ولا أتابع الأخبار، ولا ألجأ في المظلمات والمدلهمّات إلَّا إلى القواعد الكليات المُخْبَرِ

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٣١٩) **بإسناد صحيح**.

عنها في الكتاب والسنة، فالإنسان إن زيّن ظاهره بالهَدْي والسّمت، وعمّر باطنه بالتقوى، وأكل الحلال؛ وضبط فهمه في هذه الأمور الخطيرة بمنهج السلف الصالح فإن فراسته تكاد لا تخطئ.

الناس ـ كما يقول أبو بكر الوراق ـ ثلاثة: «العلماء، والأمراء، والفقراء، فإذا فسد الأمراء فسد المعاش، وإذا فسد العلماء فسدت الطاعات، وإذا فسدت الفقراء فسدت الأخلاق»[1].

فحتى يصلح الدّين والدنيا معًا، لا بدّ من اجتماع العلماء مع الأمراء، وإحياء المناصحة بينهما، وعدم الخروج على هذين الصنفين معًا، ولا سيما في وقت الفتنة، ولو كانوا أصحاب أَثَرَة.

وفتنة الخروج في عصرنا قد عملت عملها، فإنّ بسببها أُريقت دماء، وأُزهقت أرواح، تحت مسمى (الجهاد) و(القتال في سبيل الله)، وهي ظاهرة لها أسبابها ودوافعها، وهي في غاية التعقيد، ومن خلالها يظهر صحة ما عليه العلماء الربانيون وأئمة السنة في ترك الخروج على الحكام.

إذ أن التغيير والإصلاح لا يتعلق بوجود القوة أو الجماعة القادرة على الثورة، ولا بالتخريج الفقهي لجواز الخروج أو وجوبه، وإنما يتعلق بأمر آخر، أهمّ من هذا كله؛ وهو: تفكّك المجتمع الإسلامي، وظهور العصبيات الجاهلية فيه، وتحكم الشُّبهات والشهوات في المسلمين، وبُعدُهم عن أحكام دينهم الحنيف اعتقادًا وعملًا؛ بُعدًا يجعلهم ـ في أنفسهم ـ أحقرَ من أن تَسْمُو همَّتهم للعمل على إزالة المنكرات، وإقامة العدل، ويجعلهم عند ربِّهم أقلَّ شأنًا من أن يستحقوا التكريم

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٨١٨).

الإلهي بالحكم بشريعته، التي هي مصدر الأمن والاستقرار، وسبب الخير والرخاء، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ١٢٩] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[الرعد: ١١]، ويظهر صواب هذا الموقف من خلال خصائص (الحق) التي لا تنفك عنه، من ثبات أهله عليه، وانشراح صدورهم به، وطول مسيرتهم، وظهور ثمارهم، ورحم الله ابن حزم لما قال: «نُوَّار الفتنة لا يعْقِدُ»[1].

قال أخونا الفاضل الشيخ عبد الحقّ التركماني معلِّقًا على هذه الكلمة: «والمعنى: أنّ للفتنة مظهرًا خادعًا في مبدئه، قد يستحسن الناس صورتها، ويعقدون الآمال عليها، ولكن سرعان ما تموت وتتلاشى، مثل الزهرة التي تموت قبل أنْ تتفتح وتعطي ثمرتها.

وهذه الكلمة القصيرة؛ حكمة عظيمة من نتاج فكر الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ الذي عاصر فتنة البربر في الأندلس، ورأى بنفسه كيف أن الناس يعقدون على كل ثائر وثورة، وشرارة فتنة جديدة؛ آمالًا كبيرة في الإصلاح والتغيير، ولكن سرعان ما تتحول الآمال إلى مآسٍ وأحزانٍ، وضحايا وتدمير، وهذه الكلمة تنطبق على كل عصر ومصر، ويفترض بنا ـ نحن أبناء هذا العصر ـ أنْ نكون أكثرَ فهمًا لمدلولها، واستحضارًا لمعانيها، إذ نعيش في زمن قلَّ فيه العلم، وعمَّ فيه الجهل، ورفع الغوغاء رؤوسهم، وغلبت على النفوس الشبهات والشهوات». اهـ

وإذ قد ذُكرت النفوس، فأسوق هنا ـ استطرادًا ـ ما أورده الإمام ابن قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ في «مفتاح دار السعادة»، إذ يقرّر أنّ التغيير والإصلاح يرتبط

---

(١) «الأخلاق والسّير» (ص٨٤).

ارتباطًا لا محيد عنه بما عليه النّفوس، قال ـ رحمه الله ـ:

«اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنـوب المظلوم المبغي عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أن المسؤول إذا ردَّ السائل فهـو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من ردّه، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدّوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم. وهذا ـ أيضًا ـ باب عظيم من حكمة الله، يطّلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض، وتمكين الجُناة والبُغاة، فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة، وآية باهرة.

حتى إنّ الحيوانات العادِيَةِ على النّاس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء، ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدّمـة، فإنـه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عَظُم انتفاعه به جدًّا، والله الموفق.

ويُحكى أنّ بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص، فأرسل الله عليـه سَـيْلًا فذهب بالغنم، فجعل يعجب، فأُتِيَ في منامـه، فقيل لـه: أتعجب من أخذ السيل غنمك؟ إنه تلك القطرات التي شُبْتَ بها اللبن اجتمعت وصارت سيلًا.

فقِسْ على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غـيرك، تعلـم حينئـذ أن الله قائم بالقسط، وأنه قائم على كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

والأثر الإسرائيليُّ معروفٌ، أن رجلًا كان يشوب الخمـر ويبيعـه عـلى أنـه خالصٌ، فجمع من ذلك كيسَ ذهبٍ وسافر به، فركب البحر ومعه قرد له، فلـمّا نام، أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب، ثم فتحه فجعل يلقيه دينارًا في

الماء وديناًرا في المركب، كأنه يقول له بلسان الحال: ثمن الماء صار إلى الماء، ولم يظلمك.

وتأمل حكمة الله ـ عز وجل ـ في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين، كيف جُوزوا على منع ما للمساكين قِبَلَهُم من القوت، بمنع الله مادّة القوت والرّزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: مَنَعْتُم الحقّ فمُنِعْتُم الغيث، فهلّا استنزلتموه ببذل ما لله قِبَلَكم؟!

وتأمل حكمة الله ـ تعالى ـ في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدّهم عنه كما صدّوا عباده، صدًّا بصدٍّ ومنعًا بمنعٍ.

وتأمل حكمته ـ تعالى ـ في محق أموال الـمُرَابِينَ وتسليط المتْلِفَاتِ عليها، كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم، وأتلفوها بالرّبا، جُوزوا إتلافًا بإتلافٍ، فقَلَّ أن ترى مُرَابيًا إلا وآخرته إلى مَحْقٍ وقِلَّة وحاجة.

وتأمل حكمته ـ تعالى ـ في تسليط العدوّ على العباد إذا جار قويُّهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقُّه من ظالمه، كيف يسلّط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواءً[1]، وهذه سنّة الله ـ تعالى ـ منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى

---

(١) أعجبني غاية ما قاله المقريزي في «دررالعقود الفريدة» (١ / ٢٤٧) في ترجمة (أحمد) ويعرف بـ (صارو سيدنا) بعد كلام:

«وأخذنا نتذاكرُ ذلك فقال لي: ما السببُ في تأخر إجابة دعاء الناس في هذا الزمان، وهم قد ظُلِمُوا غاية الظلم بحيث إنَّ امرأةً شريفةً عوقِبت لعجزِها عن القيام بما أُلزمت به من القِيام بأجرة سكنها الذي هو ملكها مع قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**اتق دعوة المظلوم! فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب**». وها نحن نراهم منذ سنين يدعون على من ظلمهم ولا يُستَجَابُ لهم؟ فأفضنا في ذلك حتى قال: سَبَبُ ذلكَ أنَّ كلَّ أحدٍ في هذا الوقت صارَ موصُوفًا بأنَّه ظالم، لكثرة ما فشَا من ظُلم الرَّاعي والرَّعية، فكَأنَّه =

الأرضُ، ويعيدها كما بدأها.

وتأمل حكمته ـ تعالى ـ في أن جعل مُلوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأنّ أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عَدَلُوا عَدَلَتْ عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فوُلاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لَدَيْهِم وبخلوا بها، منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحقّ، وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممّن يستضعفونه ما لا يستحقّونه في معاملتهم، أخذت منهم الملوك ما لا يستحقّونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكلّ ما يستخرجونه من الضعيف، يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعُمَّالُهم ظهرت في صُوَرِ أعمالهم.

وليس في الحكمة الإلهيّة أن يولّي على الأشرار الفُجَّار إلا من يكون من جنسهم، ولـمّا كان الصدر الأول خيارَ القرون وأبَرَّها، كانت ولاتهم كذلك، فلما شَابُوا شَابَتْ لهم الولاة، فحكمة الله تأبى أن يولِّي علينا في مثل هذه الأزمان مثلَ معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قَدْرِنَا، وولاة من قبلنا على قَدْرِهِم، وكلٌّ من الأمرين موجَب الحكمة ومقتضاها.

ومن له فطنةٌ إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر، ظاهرةً وباطنةً فيه، كما في الخلق والأمر سواءً، فإياك أن تظن

= لم يَبْقَ مظلومٌ في الحقيقةِ، لأنَّا نجدُ عندَ التَّأمُّلِ كلَّ أحدٍ من النَّاسِ في زَمَنِنَا ـ وإنْ قَلَّ ـ يظلِمُ في المعنى الذي هو فيه مَن قَدَرَ علَى ظُلمِهِ، ولا نجِدُ أحَدًا يترُكُ الظُّلمَ إلَّا لِعَجْزِهِ عنه، فإذَا قدَرَ عَليه ظَلَمَ، فَبَانَ أنَّهم لَا يترُكون ظُلْمَ مَن دونَهم إلا عجزًا لا عِفَّةً. ولعمري لقد صدق ـ رحمه الله ـ، وقد قيل قديمًا:

والظُّلْمُ مِن شِيَمِ النُّفوسِ فإن تجِدْ ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ»

بظنّك الفاسد أنّ شيئًا من أقضيته وأقداره عارٍ عن الحكمة البالغة، بل جميع أقضيته ـ تعالى ـ وأقداره واقعة على أتمّ وجوه الحكمة والصواب.

ولكنّ العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها، كما أنّ الأبصار الخفّاشيّة محجوبةٌ بضعفها عن ضوء الشمس، وهذه العقول الضِّعَافُ إذا صادفها الباطلُ جالَت فيه وصالَت، ونطقت وقالت، كما أنّ الخفّاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار»[1]. اهـ بطوله.

ثَانياً ـ عِندَ قِلَّةِ ٱلْعِلْمِ:

وهذا من أجلّ وأهمّ المحاور الذي نتحدّث عنها ونبسطها في موضوعنا هذا، فالعلم بالسنة سبب من أسباب إزالة الخلاف، ومانعٌ من موانع الفتنة، لذا كان الإمام مالك ـ رحمه الله ـ يقول: «السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»[2].

كنا فيما مضى نخبر أنّ الذي يخوض في الفتنة إنما هم جهال، وأناس بعيدون عن المنهج الصحيح، ولكن في الفتن التي عصفت حديثًا وجدنا أناسًا محسوبين على العلم تكلموا في الفتنة وضرُّوا أنفسهم ـ أعني: دينَهم ـ وغرّوا قومهم، بل ضرُّوا دعوتهم، فالكلام عن الفتنة تأصيلًا وتقعيدًا وكيفية التعامل معها أمر واجب لا يجوز السكوت عنه، وأسأل الله أن يبارك لنا في الوقت حتى تكون هذه الكلمات معالم للنجاة من الفتن العاصفات، وأن يجعلنا وإياكم مفاتيح خير، مغاليق شر.

الفتنة يجب أن نفهمها كما فهمها أصحاب محمد ﷺ، وأخبرنا النبي ﷺ عن

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤).

(٢) رواه أبو إسماعيل الهروي في «ذم الكلام» (٥/ ٨١).

الفتنة لكي لا نستسلم لها، ولا لنتعامل معها على مذهب أهل الجبر، فنقف مكتوفي الأيدي تجاهها، وكذلك ما أخبرنا نبينا ﷺ عن الفتن حتى نتجاهلها ولا ننشرها ولا نعلِّمها الناس، ولا سيما في وقت الفتنة، فإنّ أبعد الناس عن الفتنة من كان بها خبيرًا، ومن أقبل عليها ففهمها ولو بالمجملات التي كان عليها السلف الصالح، نجى منها.

أخرج أبو داود في «الزهد» **بإسناد صحيح** عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «لوددتُ أنّ عندي مائة رجل قلوبهم من ذهب، فأصعد على صخرة، فأحدِّثهم حديثًا لا تضرهم بعده فتنة أبدًا، ثم أذهب فلا أراهم ولا يروني أبدًا»[1].

فهو ـ رضي الله عنه ـ يشتهي أن يقوم في خطبة على صخرةٍ، وبين يديه مائةٌ من أصحاب القلوب النظيفة النقية، والعقول المستقيمة، والمنهج القويم، فيحدّثهم بحديثٍ يفهمونه ويودعونه أعماق تلك القلوب الطاهرة، فإنّه بإذن الله وتوفيقه، وطالما هم بهذه الأوصاف، فإنهم لا تضرهم الفتنة أبدًا.

* * *

(١) رواه أبو داود في «الزهد» (٢٨٦).

الإشارة إلى محل الفتنة من الإنسان

الفتنة لها من الإنسان محلّان: العقل والقلب.

وإذا استحكمت الفتنة في العقل والقلب؛ انبطح الإنسان على وجهه، والفتنة ـ كما قدّمنا ـ من سنن الله الكونية الشرعية، فينبغي أن نفهم أحاديث الفتن على منهج أصحاب محمد ﷺ، فليس تجاهلها وعدم الالتفات إليها من منهج الصحابة.

فالنبيّ ﷺ خرج إلى أصحابه وهم يرون أنّ ابن صيّاد هو الدّجّال، بل كان بعضهم يحلف على ذلك ويقسم بالله عليه، روى البخاري ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر أخبره أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهطٍ قِبَلَ ابن صيّاد، حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أُطُمِ بني مَغَالَة، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده، ثم قال رسول الله ﷺ لابن صيّاد: «**أتشهد أنّي رسول الله؟**». فنظر إليه ابن صيّاد فقال: أشهد أنك رسول الأميين. فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه رسول الله ﷺ وقال: «**آمنت بالله وبرسله**». ثمّ قال له رسول الله ﷺ: «**ماذا ترى؟**». قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب. فقال له رسول الله ﷺ: «**خُلِّط عليك الأمر**». ثم قال له رسول الله ﷺ: «**إني قد خبأت**

لك خبيئًا». فقال ابن صياد: (هو الدُّخُّ). فقال له رسول الله ﷺ: «**اخسأ! فلن تعدو قدرك**».

فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله أضرب عنقه. فقال له رسول الله ﷺ: «**إن يَكُنْهُ فلن تُسَلَّطَ عليه، وإن لم يَكُنْهُ فلا خيرَ لك فى قتله**»[1].

فالنبيُّ ﷺ يسمع استئذان عمر في أن يضرب عنق ابن صيّاد، ولا يأذن له في ذلك بعد أن بيّن له العلّة في عدم السماح له بذلك، فالدجّال الذي كان يظنّ عمر أنّه ابن صيّاد، لم يخبرنا النبيّ ﷺ عنه لكي نتناسى فتنته ولا نعتصم منها، بل هو داءٌ أخبر عنه، لكنّ النبيّ ﷺ أراد أن يقول لعمر ـ رضي الله عنه ـ: هو داءٌ، لكنّك لستَ دواءَه يا عمر، تأمّل قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن يَكُنْهُ فلن تُسَلَّطَ عليه**»، لأنّ دواء الدّجّال هو عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ولذا فإنّ الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند الكلام على قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾، ذكر بأنّ عيسى ـ عليه السلام ـ سيقتل الدجّال، وجعل ذلك داخلًا في عموم قوله ﷺ: «**ما أنزل الله داءً إلَّا أنزل له شفاءً**»[2].

* * *

(١) رواه البخاري (٣٠٥٥) ومسلم (٢٩٣٠).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٥٥).

أَقْسَامُ ٱلنَّاس
فِي ٱلتَّعَامُلِ مَعَ أَحَادِيثِ ٱلْفِتَنِ

١ ـ منهم من يفهم أحاديث الفتنة فهمًا دخيلًا مستنكرًا، وهو أن النبي ﷺ أخبرنا عن الفتنة لنسكت وننتظر، والواجب علينا أن لا نفعل شيئًا.

٢ ـ ومنهم من يتجاوز أحاديث الفتن تجاوزًا تامًّا، ولا يحسب لها حسابًا، ولا يدخلها في تقاديره، ولا يقيم لها وزنًا، مع أنّ الفتنة لها فقه، فوقت الفتنة ووقت الخلاف له فقه خاص.

٣ ـ ومنهم من يتساهلُ تساهلًا شديدًا إلى حدّ الوسواس، فيجعلُ أحاديث الفتنة مرتبطةً بكلّ أحداث الدنيا، ويسقطها على كلّ شيءٍ صغُر أو كبُر.

وهؤلاء جميعًا على خلاف منهج أصحاب محمد ﷺ في الفتنة، والمنهج الصحيح: أن نفهم الفتن، وأن نعلمها بكلياتها، ولعلي أقول: إن معرفة الفتنة بكلياتها في هذا الزمان من الواجبات العينية على كل مسلم ومسلمة، لا أقول: مفردات الفتنة، أقول: كليات الفتنة، لأن المرض استشرى، والداء قد انتشر، ولا يمكن علاجه إلا بمعرفة كليات هذا الموضوع الخطير الذي له أثر كبير، وله أثر عملي كبير في الحب والبغض، وفي الولاء والبراء، لذا فالحذر من الفتنة ـ ولا سيما في أوقاتها ـ من أوجب الواجبات، بل هو واجب الوقت.

فالفتنة أخبرنا عنها النبي ﷺ لنقاومها، ولنحذرها، ولنبعدها عن أنفسنا،

فإن الفتنة التي أخبر عنها النبي ﷺ في آخر الزمان لها أمواج عاتيات، ولها قوة ضغط، وهذه القوة الضاغطة للفتنة تحتاج إلى إيمان ويقين في داخل الإنسان، فإذا استوت القوة الضاغطة مع الإيمان واليقين في داخل الإنسان بقي واقفًا، وإن كانت القوة الضاغطة أقوى مما هو في داخل الإنسان بطحته وبحثته على قول حذيفة ـ رضي الله عنه ـ حتى يُعلم ما وراءها وما تحتها، ولذا النبي ﷺ رحيم بأمته، ومن رحمته بأمته أخبرنا بالفتن من أجل أن نحفِّز قوانا في مواجهتها، وأن نُجمع أنفسنا، وأن نثبت، وأن نقاوم.

أرأيتم إلى ذلك الوالد الذي يريد ولده أن يتحول من ديار الإسلام إلى ديار الكفر حيث لا حياء ولا خلق، ولا فضيلة ولا حرام، والفاحشة قريبة في متناول اليد، يقول لولده: يا ولدي! إنك ترى، وترى، وترى، يخبره بما هو واقع، لكن لا يخبره حتى يستسلم، إنما يخبره من باب التحذير ومن باب النصيحة والشفقة على هذا الولد.

فالنبي ﷺ أخبرنا عن الفتن في آخر الزمن رحمة بنا حتى نحفِّز قوانا، وحتى نستعدَّ لهذه الصعاب، فالأمر جد خطير، والأمر يعود إلى دينك، الفتنة تريد أن تنال من دينك، فالواجب عليك أن تحفز قواك، وأن تفهم، وأن تكون فطنًا حاذقًا تعلم أين تضع قدميك، وفي ماذا توظف لسانك، وعلى ماذا تعقد قلبك.

والحال التي يجب أن تُراعى زمن الفتنة هي كما روى الطبراني في «الكبير» وغيره عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لا تكونوا إمّعة، تقولون: إن أحسن النّاس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٧) مرفوعًا عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ وله طرقٌ مرفوعة عن =

فالواجب على الإنسان في وقت الفتنة أن يعلم أن الفتنة أعاصير، وهذه الأعاصير لها قوة، والواجب أن تستقبلها بحزم وعزم، واجتماع قوة النفس.

كنت أقرأ آية في كتاب الله في سورة الأنفال عن أهل بدر وكانت توقفني كثيرًا، وكلما مرَّت بي في ختمتي لكتاب ربي ـ جلّ في علاه ـ أوقفتني وتأملتها كثيرًا، وهجمت عليّ شديدًا في خلوتي، ثم شرح الله صدري لجواب، فإن كان صوابًا فأحمده ـ تبارك وتعالى ـ، وإن كان خطأ فأستغفر الله، فإنّه مني ومن الشيطان، وأسأل الله أن يعلمني وإياكم والمسلمين.

يقول الله ـ سبحانه ـ عن أهل بدر في سورة الأنفال: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[الأنفال: ٦]، كلام ربنا حق، وهو الذي يعلم السر والنجوى، لكن لماذا أهل بدر لما ذهبوا للقتال كانوا ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: إلى الموت؟ هذا حال المجاهد؟! ما هو السر في هذا الوصف؟!

السرّ هو الضعف الإنساني، وأن النبي ﷺ خيّرهم بين أن يقاتلوا عدوهم وبين أن يغنموا القافلة ويستردوا أموالهم التي اغتصبها الكفّار منهم في مكة، فالنفس إن خيّرت بين أمرين، مالت إلى الأيسر بطبعها، فإن وقع الأثقلُ كان شديدًا عليها، فهذا هو سر قول ربنا ـ جلّ في علاه ـ عن أهل بدر: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، لأنهم لم يحفزوا قواهم للقتال، ولا تهيئوا له، ولا حدثوا به أنفسهم، ولا جمعوا قوتهم لملاقاة عدوهم، وإنما ذهبوا لينالوا وليغنموا، وليستردوا شيئًا مما سلب منهم من قبل كفار قريش، فوقع القتالُ ولم يكن حُسِبَ حسابُه، فكانوا مع عِظَم مكانتهم وعِظَم بلائهم الحسن في أوّل مشاهد الإسلام وأشرفها، كما وصفهم الله عندما جاءهم القتال فجأة، والضعف في الإنسان هو هو.

= ابن مسعود، والصواب وقفه على ابن مسعود كما تراه.

ففي وقت الفتنة لا يجوز للإنسان إلا أن يكون عارفًا بدينه قابضًا عليه، ولذا أخبرنا نبيُّنا ﷺ أن القابض على دينه في آخر الزمان كالقابض على الجمر[1]، لأنّ الفتن ستشتدّ به، وتأمَّل الصورة، فإنّ (القابض) غيرُ الممسك بالجمر مجرّد الإمساك، فان الجمرة إن قبضت عليها لعلك تسقط الشعرة التي بينك وبين الناس، فحينئذ تطفئ حرّها، وتهنأ بحياتك، وأما إن بقيت ماسكًا وتلعب بالجمرة، فإنها تتعبك وتحرقك وتؤذيك وتشتد عليك.

ومن أهم أسباب إخبار النبي ﷺ عن الفتنة، أنّه أرادنا أن نحفِّز قوانا، ونتأمل مواقفنا، ونحفظ ألسنتنا، والواجب علينا في وقت الفتنة أن نتعامل معها بعلم وحلم، وعلى مقتضى الوحي.

اليوم، الفتنة ـ كما ذكرنا ـ لها مخرّجون ومروّجون ووكلاء، الفتنة اليوم عجيبة، تُهدم بعض الدول باسم الدين وباسم الشرع، وبالكذب والزور والبهتان، وتُصنع أخبار بالعنعنة، ويلج الشيطان وأعوانه وأولياؤه إلى هذا الباب الخطير، باب الفتنة، ويذهبون ويجيئون، ويبيضون ويفرخون، وتظهر لهم ثمار في الأوقات العصيبة، ويتكلمون باسم الدين، بل يتكلمون باسم التراث الإسلامي!

ومن منّا لا يذكر كتاب (هرمجدون) الذي صنعَ ذاك المهدي المزعوم، الذي زعم صاحبه أن صدام حسين هو المهدي، فنفخ في أذنيه وقامت قيامته، فهُدمت بلاد واحتُلت بلاد تحت شيء مصنوع.

أريد أن أنبِّه إلى جانب آخر على عجلة، أحبه وأنا خبير به، وسافرت مرارًا من أجله، لأبيِّن لكم ومضة ليست إلا لتعلموا شيئًا عن المختبرات التي تُصنع

---

(١) روى الترمذي (٢٢٦٠) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر**».

فيها الفتن، وأنّ (قلّة العلم) هي التي تريحهم وتجرّؤهم.

صاحب كتاب (هرمجدون) يزعم أنه ينقل من مخطوطات، وينقل أخبارًا لترويج شيءٍ معيَّن رُسِمَ في ظرفٍ عصيب، لتقع المؤامرة وتكون محبوكة من جميع الجوانب، فدخلوا وولجوا باب التراث، باب المخطوطات، وسمى في كتابه مما تتبعته من المخطوطات التي يقول إنّه نقل منها: ثلاثًا وأربعين مخطوطة! فوالذي نفسي بيده! إن هذه المخطوطات الثلاث والأربعين التي زعم أنه نقل منها كذبٌ وزورٌ، وليس لها وجود في الحقيقة، وإنما أسماؤها وعناوينها من تأليفه واختراعه واختلاقه.

والعجيب أنه في الأحداث الجِسام ووقت الفتن العاصفات، تظهر دراساتٌ مركّزة تريد أن توجه الأفهام، وتريد أن تصنع نفسية معيَّنة لكي يُمَرَّرَ ما يحدث، ثم بعد أن يمرر الحدث يظلّ النّاس لا يدرون لم نفسيّاتهم على النحو التي هي عليه، حتى يتداركهم الله بشيءٍ من التذكير والعلم والبصيرة، فأعداء الله ـ عز وجل ـ يمرِّرون مؤامراتهم بنفسيات صنعها إعلامهم لنا.

وبالعودة إلى (هرمجدون)، استمع معي، والله إني لمحتار ماذا أختار من شدة العجب!

في (ص٢٤٢) منه ينقل من مخطوط اسمه: (آخر الكرة الأرضية من جهة الشمال في آخر زمان الرب)!! هذا اسم مخطوط عنده! وهذا المخطوط موجود في (كتب خانة) في اسطنبول، (كتب خانة) يعني: مكتبة!

وهذا كله دجل وكذب، ما اسم المكتبة؟ ما رقم المخطوط؟ من مؤلّفه؟ كل هذا غير معلوم! ويسمّي مخطوطًا آخر يقول إنّه في الفاتيكان: (خير البرية في آخر زمن البشرية) لخير الدين ابن علا الحنين المدني!

ويقول: هنالك مخطوط في غرفة البابا يوحنا السرية! وهو ينقل عنه أخبارًا!

ويقول ـ مثلًا ـ: هذا مخطوط نادر من مخطوطات الحبشة، اسمُه: (سلم وحرب في آخر زمن الرب)، وهو لتابعي من التابعين اسمه الحافظ ابن سلام ابن معاذ ابن بذحان المدني!!

وهذه كلها مخطوطات في أماكن موهومة وبأسماء موهومة لتمرر مؤامرة على الأمة باسم التراث الإسلامي والبحث الشرعي.

فهؤلاء الكذّابون والدجّالون المصنوعون صنفٌ آخر من الخائضين في الفتنة بفتنة، فالخائضون فيها: إما نحرير ذكي فطن يقدّر الأمور، لكن فيه تهوّر واندفاع غالبًا ما يخطئ التقدير، وإما خطباء، وإمّا سادةٌ وأشراف، فهذا الصنف الجديد الذين هم الدجالون والكذابون، مقامهم أن توحي إليهم شياطين الجن والإنس أن يجعلوا النصوص الشرعية تقبل الفتنة، وتعين عليها، لكي تُمرَّر ويتقبلها الناس ويقعوا فيها.

وهذا الصنف ـ لا كثّره الله ولا بارك فيه ـ هم الذين أتعبونا بكتاب (الجفر)، وهذا الكتاب كذب وزور ودجل، وحذر العلماء منه منذ قرون، فقد حذر منه ابن تيمية في مواطن من كتبه، وحذر منه الإمام الذهبي، وزعموا أن في (الجفر) كل المعلومات إلى قيام الساعة، وأن عليًّا ـ رضي الله عنه ـ بحسب معتقد الروافض هو الوصيّ الذي يعلم الغيب وهو جنين في بطن أمه، ويعلم ما يجري إلى يوم الدين، وهذا معتقد صار عند بعض أهل السنة وهم لا يشعرون، وصار أهل السنة في وقت الفتنة يبحثون عن الفتنة! قالوا: (الجفر) فيه أخبار ما يجري في العراق، وفيه مقتل صدام حسين!

وكتاب (الجفر) هذا الذي شاع خبره في الفتنة التي حصلت من قريبٍ في

بعض ديار المسلمين، وهو ـ على حدِّ الأكاذيب التي فيه (ص٥) ـ: «علمٌ بقوانين حَرفية (نسبة إلى الحَرف)، يصل بها إلى استنباط المجهولات من الحوادث الكونية»، بـل زعم واضعوه ـ بقولهم فيـه (ص٥) ـ أيضًا ـ: «يمكن أن يُفهمَ منـه أحوالُ الإنسان الماضي والحال والمستقبل، وكيفيته الحادثة بهذه الطريقة».

وهذا الكتاب منسوب للصحابي الجليل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ تارة، وتارة إلى جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ.

وهذا الكتاب من مصادر كتاب «الكافي» للكليني؛ ففي (كتاب الحجة) منه: (باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامع) (١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠)، وفيه على لسان علي ـ رضي الله عنه ـ: «وإن عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟ قال: قلت: وما الجفر؟ قال: وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل»، وفيـه: «...ما يحدث بالليل والنهار، الأمر من بعد الأمر، والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة»!!

وفي هذا الكتاب من أمور الغيب والأحداث والأسرار الشيء الكثير، ويزعم الإمامية أن جعفرًا الصادق ـ رحمه الله ـ كتب لهم كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامـة، وكان مكتوبًـا عنده في جلد ماعز؛ فكتبه عنه هارونُ بنُ سعيد العجلي رأس الزيدية، وسماه (الجفر) باسم الجلد الذي كتب فيه، وهذا زعم باطل مخالف لما يعتقده المسلمون من أن الغيب لا يعمله إلا الله ـ سبحانه ـ، ومن ارتضى من رسله، قـال ـ تعالى ـ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

قال السيد محمد رشيد رضـا في مجلة «المنـار» (٤/ ٦٠) وفي «الفتاوى» له (٤/ ١٣٠٧ رقم ٥١٥):

«لا يعرف له سند إلى أمير المؤمنين، وليس على النافي دليل، وإنما يطلب الدليل من مدَّعي الشيء، ولا دليل لمدّعي هذا الجفر».

قلت: المشهور أن الكتاب المزعوم منسوب إلى جعفر الصادق، ولم يصح ذلك ألبتة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧٨ ـ ٧٩): «وأما الكذب والأسرار التي يدعونها عن جعفر الصادق؛ فمن أكبر الأشياء كذبًا؛ حتى يقال: ما كُذِبَ على أحدٍ ما كُذِبَ على جعفر ـ رضي الله عنه ـ.

ومن هذه الأمور المضافة: كتاب «الجفر» الذي يدّعون أنه كتب فيه الحوادث، والجفر ولد الماعز، يزعمون أنه كتب ذلك في جلده».

قلت: العلم بحث، والعلم تثبُّت، رجعت إلى بعض المخطوطات من كتاب (الجفر) هذا، فوجدت أن الذي فيه عن علي أنه كان له سيف (صارم)، فحرفها هؤلاء إلى (صادم)، ثم صادم حرفت إلى (صدّام)! ثم وُضعت وسُبكت أخبار، والعجيب من هذا الكذاب[1] أنه ينقل نصًّا ويضبطه ببياض! يقول في الحاشية: لم يظهر في المخطوط، هذا من أعجب ما يكون، فهذا من ألاعيب الشياطين.

لذا ففي موضوع الفتنة علينا أن نعلم كيف نتعامل معها، ينبغي أن نفهمها فهمًا شرعيًّا صحيحًا، ومن أهم الأمور في الفتنة التثبُّت، ومن أهم الأمور في الفتنة أن تفهم الفتنة من تحت جناح أهل العلم، وتستضيء بتوجيهاتهم.

الفتنة كما قدّمنا لها موضعٌ من الإنسان، في عقله وقلبه، ومن الأدلة على ذلك ما أخرجه أحمد في «المسند» من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) المقصود مؤلف كتاب (هرمجدون).

قال: قال رسول الله ﷺ:

«**إن بين يدي الساعة الهرج**». قالوا: وما الهرج؟ قال: «**القتل**». قالوا: أكثر مما نقتل؟! إنَّا لنقتل كل عام أكثر من سبعين ألفا. قال: «**إنّه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتل بعضكم بعضًا**». قالوا: ومعنا عقولنا يومئذ؟! قال: «**إنه لتُنْزَعُ عقول أهل ذلك الزمان، ويخلف له هباء من الناس، يحسب أكثرهم أنّهم على شيء، وليسوا على شيء**».

قال عفّان في حديثه: قال أبو موسى: والذي نفسي بيده! ما أجد لي ولكم منها مخرجًا إن أدركتني وإياكم، إلا أن نخرج منها كما دخلنا فيها، لم نصب منها دمًا ولا مالًا[1].

وفي طريقٍ أخرى صحيحة: «**حتى يقتل الرجل جاره، ويقتل أخاه، ويقتل عمّه ويقتل ابن عمّه**»[2].

فالقتل وسفك الدّماء هو أعلى ما يكون من الخلاف، وهو أبرز ما تتجسّد وتتصوّر فيه حقيقة الفتنة.

فانظر كيف ذهبت الفتنة بالعقول فجعلتها هباءً، والهباء هو ذرّات الغبار التي تُرى تتطاير في ضوء الشمس، هكذا عقول النّاس تحت تأثير الفتنة، إلا من رحم الله.

ولذا كنت أتعجّب كثيرًا في أوائل أحداث هذه الفتنة المعاصرة في ليبيا، هم مسلمون يتقاتلون، وكلٌّ منهم يسمي قتيله شهيدًا، وهم جميعًا مسلمون! أين عقول

---

(١) رواه أحمد (١٩٥١٠) وإسناده صحيح.

(٢) رواه أحمد (١٩٦٥٣) وإسناده صحيح.

الناس؟ أين أفهامهم؟ لا عجب، فإنّ العقول تطيش كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بهارج وزخارف وتنميقات تذهب بعقول الخلق.

والفتن تعرض على القلوب، فقد روى مسلم عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا:

«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أُشْرِبَهَا نكت فيه نكتة سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين؛ على أبيض مثل الصَّفَا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسودُ مُرْبَادًّا كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشْرِبَ من هواه»[1].

فعلامة المفتون أن ينظر إلى المنكر على أنه معروف، وأن ينظر إلى المعروف على أنه منكر، ولا يعلم من أحكام الشرع إلا ما يوافق هواه، فما وافق هواه فهو دين، وما لم يوافق هواه ـ وإن ثبت بالنصوص الصريحة الصحيحة ـ فلا يكون عنده دينًا.

وصدق حذيفة ـ رضي الله عنه ـ إذ يقول: «إذا أحبّ أحدكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر؛ فإن كان رأى حلالًا ما كان يراه حرامًا فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حرامًا ما كان يراه حلالًا، فقد أصابته»[2].

فالدّين عند أهل الفتنة مستودع يأخذون منه ما يشتهون وما يريدون، ويدوِّرونه

---

(١) رواه مسلم (١٤٤).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٨٤٤٣) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٣)، **وهو صحيح.**

معهم ولا يدورون معه، هذا شأن المفتونين.

فإذن، من أسباب النجاة من الفتنة أن تتعلمها وتحفظ علاماتها، وقد مرّ بنا قول حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «لوددتُ أنّ عندي مائة رجل قلوبهم من ذهب، فأصعد على صخرة، فأحدثهم حديثًا لا تضرهم بعده فتنة أبدًا، ثم أذهب فلا أراهم ولا يروني أبدًا».

ذلك لأن تعلُّم فقه الفتنة يحتاج إلى قلوب من ذهب، لأنّ الفتنة تعلَق بالقلب طالما كانت تُعرض عليه كالحصير عودًا عودًا، وهذا القلب الذي من ذهب، نقيٌّ قابلٌ لتلقّي العلم النافع، وقابلٌ لسماع النصيحة النبويّة، لأنّ العلم الشرعي وقراءة أحاديث الفتنة واعتقادها والتصديق بما جاء فيها سبب من أسباب النجاة من الفتن.

لذا طالب علم الحديث السلفيّ، المقبل على قراءة وفهم وحفظ أحاديث النبي ﷺ يعصمه الله من الفتنة.

وقد قصّ النبي ﷺ علينا قصة عظيمة لأحد طلبة العلم مع الفتنة، وهو من طلبة علوم الحديث، ومن الباحثين عن سنة النبيّ ﷺ، وقد نجّاه الله وعصمه من الفتنة ببركة ذلك.

فهذا حديث أصله في «الصحيحين»، وهو حديثٌ طويل وفيه زيادات، لكن لنأخذ منه هذه الطريق عند مسلم، فقد روى مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**يخرج الدجال فيتوجه قِبله رجل من المؤمنين، فتلقاه المسالح مسالح الدجال، فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج. قال: فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا؟! فيقول: ما بربنا خفاء! فيقولون: اقتلوه. فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحدًا**

دونه؟ قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس! هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ. قال: فيأمر الدجال به فيشبح، فيقول: خذوه وشجّوه، فيوسع ظهره وبطنه ضربًا. قال: فيقول: أو ما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب. قال: فيؤمر به فيؤشر بالمئشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه. قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائمًا. قال: ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة! قال: ثم يقول: يا أيها الناس! إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس. قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فيُجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نُحاسا، فلا يستطيع إليه سبيلًا. قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: **هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين»**[1].

فتأمّل أخي في الله حال هذا الشاب، تجده شابًّا تشبّع وارتوى من أحاديث النبيِّ ﷺ، لا سيما أحاديث الفتن.

فتأمل قوله: (**يا أيها الناس! هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ**).

وتأمل عقيدته الراسخة، وإيمانه الصحيح عندما سألوه: (**أو ما تؤمن بربنا؟**)، فيجيب واثقًا: (**ما بربنا خفاء**).

فهذا حالُ من أحكَمَ البدايات، فسلمت له النهايات.

ألم يقل حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني)[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٣٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧).

وقد قال الشاعر:

عرفـتُ الشـرّ لا للشرّ لكـن لتوقّيـهِ ومن لا يعرف الشرَّ من الخيرِ يقع فيهِ

وأنا أسأل الله أن تستقرّ هذه الأصول وهذا الكلام في القلوب والعقـول، وأن نفهمه وننشره ونشيعه بين المسلمين، فهذه أصول كليّـة لا ينبغـي أن تغيـب عنا، بل ينبغي أن تكون حديث مجالسنا.

فنحن نتكلم عن الفتنة لنتوقّاها، و(من لا يعرف الخير من الشر يقع فيه).

* * *

لو أردنا أن نرسم بيانًا للفتنة، فكيف يمكن أن نرسم سَير الفتنة وصعودها ونزولها؟

الدّين في انتشاره وبركته وخيره يكون في الذّروة في زمن النبي ﷺ، ثم يبقى الأمر في عصر الصحابة والخلفاء الراشدين الأربعة، ثم بعد عصر الراشدين الأربعة يبدأ الأمر بالنزول، وهذا النزول لا يبقى مضطردًا، بل يكون معه صعود، ثم نزول، ثم صعود، لكن الصعود لا يمكن أن يصل إلى مرتبة الخلفاء الراشدين الأربعة، وإنما يكون الأمر بعد ذلك بين النزول والصعود.

والأدلة الشرعية قائمة على هذا، وتتناسب مع واقع تاريخ الأمة، فإنّ من درس تاريخ الأمة يجد الأمر كذلك، ونحن بحاجة ماسة لأن نعرف المعيار والميزان الذي من خلاله نحكم: هل الفتن تشتد مع مرور الزمن أم لا تشتد؟! وكيف يتناسب وجودها مع وجود العلم الصحيح وظهوره وانتشاره؟

أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» في (كتاب الفتن) عن الزبير بن عديّ قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجّاج، فقال: **اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرٌّ منه حتى تلقَوْا ربكم،**

سمعتُه من نبيّكم ﷺ[1].

لذا كان الحسن البصري يقول في مواعظه كما عند أحمد بن مروان الدّينوري[2] وغيره ـ لما مات الحجاج ـ: (اتقوا الله! فإنّ عند الله حجّاجين كثيرةً).

ودلّ على هذا ما أخرجه الطبراني بإسناد جيّد عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال لامرأته: اليوم خيرٌ أم أمس؟ فقالت: لا أدري. فقال: لكنّي أدري! أمسِ خير من اليوم، واليوم خير من غدٍ، وكذلك حتى تقوم الساعة[3].

ومن المعلوم أن الخير في هذه الأمة في أولها، واستفاضت الأحاديث بل تواترت على أن الشر والفتن يصيب آخرها.

ومن أصرح الأحاديث الواردة في ذلك ما أخرجه مسلم في «صحيحه» بسنده إلى عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «**إنّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرَّ ما يعلمه لهم، وإن أمّتكم هذه جُعل عافيتها في أوّلها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمور تنكرونها**».

والشاهد من إيراد هذا الحديث: (**وإنّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها**)[4].

الخطاب للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، فالذي ينكر ما يقع في آخر الزمان، ولا سيما إن غُلِّف بغلاف الجهاد والطاعات في وقت الفتنة، لا ينكره إلا من كان على

---

(١) رواه البخاري (٧٠٦٨).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٢٤٣٣ ـ بتحقيقي).

(٣) «المعجم الكبير» (٨٧٧٣).

(٤) رواه مسلم (١٨٤٤).

هدي أصحاب محمد ﷺ، وهذا هو السر في قوله ﷺ: (**تنكرونها**) ـ بتاء المخاطَب ـ.

فإنّ هذه الفتن ستقع في آخر الأمّة، وفي آخر الزمان، والنبيّ ﷺ يعلم أنّ أصحابه الذين يخاطبهم في ذلك الوقت سيموتون قبلها، وهم كذلك لم يفهموا من حديثه ﷺ أنّهم سيدركونها، ولكن الذي ينكرها هو من كان على منهجهم، ومن يفهم الأحداث بفهمهم.

الفتنة سنةٌ من سنن الله، وهي سنّةٌ قدرية كونيةٌ، ولكن يوجد في التعامل معها ثوابت شرعية، والسنن الكونية الشرعية تحتاج إلى فهمٍ ورعايةٍ وتدبّر وتأمّل، وفق كلّيّات وعواصمَ شرعيّات.

الذي رأيناه وفحصناه وبلوناه، أنّ الذين يعرفون الفتنة، ودرسوا أحاديث النبيّ ﷺ في الفتنة هم أبعد الناس عن الفتنة، وأما الذين يخوضون في الفتن وترتفع أصواتهم[1]، فهم أبعد النّاس عن فقه أحاديث الفتن، وأبعد النّاس عن فهم الأحداث بفهم أصحاب النبيّ ﷺ.

إذن، الفتنة مع مضيّ الزمن تشتد، لكن ما معنى اشتدادها؟ وكيف ينبغي علينا أن نفهم هذا الحديث الشريف: (**لا يأتي عليكم زمانٌ إلا والذي بعده شرٌّ منه**)؟

---

(١) بل أكاد أقول: إنّ منهم من ترتفع أسهمه في الفتنة، كأسهم الأوراق الماليّة، لكن الويل لهم عند الله، فإنّ بعضهم لا يقوى على ذبح دجاجة في حياته! وقد يلقى الله وفي ذمته مئات الألوف من الأرواح، لا سيما مع وجود وسائل الإعلام التي تذكي الفتنة وتساعد على التهييج عليها، فالواجب على أهل الفطنة والتوفيق الحذر، ويجب على من كان سببًا في إراقة بعض الدماء بطريق مباشر أو غير مباشر التوبة، والإعلان بها، ولا سيما من يحسب على السلفية، وإلى الله المشتكى.

أظهرُ فرقٍ، وأبرزُ مَعْلَمٍ يفصلُ بين من يفهم الفتن على منهج أصحاب محمد ﷺ، وبين من يستدل بأحاديث الفتن لنشر الفتنة والوقوع في خراب البلاد والعباد وسفك الدماء؛ هو مَعْلَمُ المعيار والميزان الذي نَزِن به الأمور عند وقوع الفتنة.

والأمر مستشكَل، وقد ذكر الاستشكالَ بعض شارحي الحديث، ومنهم ـ على سبيل المثال ـ الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ، فإنّه عندما جاء إلى شرح هذا الحديث في كتابه «فتح الباري» ذكر المهدي والدجّال، أيهما قبل وأيهما بعد: المهدي أم الدجال؟ ثم ذكر عيسى ـ عليه السلام ـ وعيسى يكون بعد الدجال قولًا واحدًا.

فإذا نظرنا في الحديث: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه**»، فإنّنا نجد زمن عيسى خيرًا من الدجال، قال الحافظ بأنّ هذا الإشكال مدفوعٌ، لأنّ ذلك وقت فتن آخر الزمان، وآخر الزمان له حكم خاص، وعليه: فقد رُفع هذا الإشكال على هذا الرأي.

ثم استشكل الأمر بما هو معلومٌ بالتواتر تاريخيًّا، وهو وجود عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج، فأيّهما أفضل؟ لا ريب في أنّ عمر بن عبد العزيز أفضل من الحجاج، لكن كيف نفهم الأمر في ضوء الحديث إذن؟

اعلم ـ علمني الله وإياك، وبارك الله لي ولك في الكتاب والسنة ـ أنّ المفاضلة بين الأمم أو بين العصور والحِقَب الزمانيّة للأمّة الواحدة لا تكون بالمفاضلة بين الحكّام، فإنّ اتّخاذ الحكّام مادةً أساسيّةً للمفاضلة فيه لوثَةُ الرّفض، فإنّ الرّافضة في مبحث الإمامة عندهم، يقرّرون أنّ الإمام ينبغي أن يكون خير الخلق، والإمام لا بد أن يكون معصومًا، ولا تجوز إمامة المفضول مع الفاضل.

وأمّا عند أهل السنة؛ فكما ثبت في «الصحيحين» أنّ النبي ﷺ صلى خلفَ

أبي بكر[1]، وإمامة المفضول مع الفاضل منعقدة، ولا يلزم لوالينا وحاكمنا حتى يكون له حق السمع والطاعة أن يكون عالمًا، ولا يلزم أن يكون أعدلنا وأفضلنا وخيرنا، هذه ملاحظةٌ في أصول المفاضلةِ لا بدّ أن ندركها ونركّز عليها.

* فَمَاهُوَهَذَاٱلْمِيزَان؟

هو ما جاء عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: (ليس عامٌ إلا والذي بعده شر منه، لا أقول: عامٌ أمطر من عامٍ، ولا عام أخصب من عام، ولا أميرٌ خير من أمير، لكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم؛ فيهدم الإسلام ويثلم)[2].

---

(١) عن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فحانت الصلاة، فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقال: أتصلي للناس فأقيمُ؟ قال: نعم. فصلى أبو بكر، فجاء رسول الله ﷺ والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف، فصفق الناس، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس التصفيق، التفت فرأى رسول الله ﷺ، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن امكث مكانك. فرفع أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يديه فحمد الله على ما أمره به رسول الله ﷺ من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف وتقدم رسول الله ﷺ فصلى، فلما انصرف قال: **(يا أبا بكر! ما منعك أن تثبت إذ أمرتك؟)**. فقال أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **(ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق؟ من رابه شيء في صلاته فليسبِّح، فإنه إذا سبح التُفِتَ إليه، وإنما التصفيق للنساء)**. رواه البخاري (٦٨٤) ومسلم (٤٢١).

(٢) أخرجه الدارمي (١٨٨) وأبو عمرو الدّاني في «السّنن الواردة في الفتن» (٢١١) وابن وضّاح في «البدع والنهي عنها» (٧٨) والبيهقي في «المدخل» (١٤٦) وابن عبد البر في «الجامع» (١٠٤٠).

فإذا وجد العلم على المنهج الصحيح الذي يحبه الله ورسوله، وساد وانتشر في الأمة، فالأمة في خير.

وأما اليوم، فمعيار النّاس في معرفة الأمة المتقدمة أو المتأخرة ما هو؟

تأمّل قليلًا، تجده العلم الدنيوي التجريبي، وأمّا المعيار عندنا فهو العلم الشرعي، العلم الذي أنزله الله على قلب النبي محمد ﷺ، الوحي الشريف المبارك.

لكن دين الخَلق ـ إلا من رحم الله ـ اليوم ليس قائمًا على الوحي، وإنما يتديّن الناس بالفكر، والفكر هو الذي تغزوه الفتنة، أما دينُ الوحي الذي يجب على كل مسلم أن يتسع قلبه وعقله له، ويؤمن بما أخبر عنه النبي ﷺ مما يكون في آخر الزمان، كما اتسع قلب وعقل أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لما ضاقت عقول الكفار عن التصديق بخبر وصوله ﷺ من بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم إلى السماوات السبع في الإسراء والمعراج، فالدّين القائمُ على هذا الإيمان والتصديق لا تغزوه الفتنة، بل يبقى معصومًا منها، مصونًا عنها.

الذي يستفيد من هذه العواصم هو الذي يستسلم ويتسع عقله وقلبه لما أخبر عنه النبي ﷺ مما سيكون في آخر الزمان، هذا الذي ينجو من الفتنة، من كان دينه دين وحي لا دين فكر[1]، من كان يعلم أن كتاب الله وأحاديث النبي ﷺ محكمة حاكمة على الأشخاص والأحداث، وأنها ليست بمنسوخة، وأن هذا الإعلام بضجيجه وتلوينه وتقليبه وتزيينه للأحداث، فإنّ كل هذا مجتمعًا أو منفردًا، ولو جُمِعَ إليه إنسها وجنّها، أولها وآخرها، ما جَعلت آيةً أو سنةً لله منسوخة، وكلام الله وكلام نبيِّه ﷺ محكم لا تقدر هذه الترهات والبواطيل والزخارف على نسخه، فمن

(١) أعني به ما يعنّ في أفكار الناس جراء رعونات الأنفس، وحثورات الإعلام، ووجود الرغبات، وإلا فالعقل المتأني الصحيح لا يمكن أن يعارض دين الوحي الصحيح.

بقي صدره واسعًا للنصوص الشرعية، فهو الذي يكون بعيدًا عن الفتنة، فالميزان العلمُ والإيمان والتصديق.

وبالرجوع إلى الإشكال السابق نذكر السؤال الآتي:

من هم أهل العلم في عصر الحجاج؟

الجواب: الوجوه البارزة في ذلك الزمن هم من بقي من علماء أصحاب النبيّ ﷺ.

ومن هم أهل العلم في عصر عمر بن عبد العزيز؟

الجواب: التابعون.

إذن، من الأفضل من العصرَين؟

الجواب: عصرُ الحجاج، وواضحٌ للجميع أنّنا نقصد عصرَه لا شخصَه، فعصر الحجاج بمن فيه من أصحاب محمد ﷺ خيرٌ من عصر عمر بن عبد العزيز بمن فيه من تلاميذهم الأخيار، العبّاد، المجاهدين، العلماء، لكن المعيار في معرفة الخيريّة هو معيار العلم الشرعيّ، وسلامة المنهج، ونقاوة الأصول، لأنّ هذه العوامل هي المؤثرة في معرفة الفتنة وضبط طبيعتها وأحكامها.

ولذا فإنّ سبب النجاة الذي يعرفه كل موفّق في الفتنة، هو أن تسأل عن موقف العلماء في الفتنة، وأن يكون موقفك موقفهم، فإنّ أقرب وأقصر وآمَنَ وأسهل وأسلم طريقٍ للنجاة والسلامة من الفتنة؛ أن لا تردد كلام الإعلام والفضائيات، بل ردد كلام العلماء الربانيين، فإنّه يحرم شرعًا بناء الأحكام على كلام الإعلام ومقدماته، لأن الإعلام أصبح وسيلة أساسيةً من وسائل تأجيج الفتنة، بل من وسائل صناعتها أحيانًا، والإعلام الذي سمي إعلامًا إسلاميًّا ما قام بعُشر معشار الواجب عليه، بل ما قام بواحد من ألوف مؤلفة من

الواجبات عليه في تحصين الناس، لأن آفة الإعلام أنه يتحرّك على وتر ما يطلبه المستمعون، لا ما يحتاجه المستمعون.

وبالعودة إلى موضوعنا، فإنّ من تسلح وتحصن بأخبار الفتن وفهمها على منهج السلف أصبحت عنده فراسة، ولكن هذه الفراسة قد يحصرها في نفسه، قد يحكيها لخواصه ولا يذكرها على أنها من المقررات النبويّة التي أخبر فيها النبيّ ﷺ عمّا هو كائنٌ من الفتن.

عندما اندلعت أحداثُ ما سمّي ـ زورًا وبهتانًا وزُخْرُفًا من القول ـ بـ «الربيع العربي»، تكوّن لدينا ـ والفضل لله ـ تصوُّرٌ لم نتزحزح عنه من أوّل لحظة، وهو أنّ الذي يجري لا هو (ربيعٌ) ولا هو (عربيٌّ)! وإنّما هو (خريفٌ غربيٌّ)! وأنّه لا يصبّ إلّا في صالح اليهود والروافض.

لكن عندما يصبحُ الدّين فِكْرًا لأفرادٍ أو جماعاتٍ، وليس دينًا مبنيًّا على الوحي المعصوم، تستطيع أن تتسلل إلى عقول الخلق، وتستطيع أن تدخل من خلال الفجوات الموجودة عند المجتمعات[1]، وأن تفرق الأمّة بالتعدّي على الثوابت الشرعيّة باسم الإصلاح واستجلاب الخيرات والازدهار، وباسم توزيع الثروات، وباسم العدالة الاجتماعيّة، وحينئذ تنتشر الفتن انتشارًا لا يعلمه إلا الله.

---

(١) انظر ـ لزامًا ـ: التباس (الثورة) بمفهوم (الجهاد) والعوامل التي سببت هذا التداخل والمزج، مع الفروق بينهما، في كتابي «ضوابط الإصلاح والتغيير وأصوله الشرعية»، وهو بحث قدمتُه إلى مؤتمر (الإصلاح والتغيير، رؤية شرعية) بإشراف وزارة الأوقاف الكويتية، المنعقد في الكويت المحروس خلال الفترة ٢ ـ ٣/ ربيع الأول سنة ١٤٣٤هـ الموافق ١٤ و١٥/ ١/ ٢٠١٣م.

وهؤلاء الروافض أعداء الإسلام، حتى في كتب التواريخ والأخبار، لا تجد الرافضة تمكّنوا من بلاد الإسلام على وجهٍ فيه بطولةٌ، بل ولا رجولة! ولا نعرف بطلًا للرافضة، ولا نعرف معركة خاضوها، ولا نعلم إلا أنهم إن تمكنوا فإنهم لا يتحصّلون على ذلك إلى بأن يوالوا الكفار وينصروهم، ويعادون المسلمين، ولا سيما ممن لا يوافقهم على أباطيلهم، مستغلّين في كلّ ذلك ظروف الجهل الذي يفضي إلى الفرقة والفتنة.

ومن أعجب ما وقفت عليه، كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «منهاج السنة النبوية»، قال: «ولهذا لما خرج التّرك والكفّار من جهة المشرق فقاتلوا المسلمين، وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها، كانت الرافضة معاونةً لهم على قتال المسلمين، ووزير بغداد المعروف بالعلقمي هو وأمثاله كانوا من أعظم الناس معاونة لهم على المسلمين.

وكذلك الذين كانوا بالشام، بحلب وغيرها من الرافضة، كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين، وكذلك النصارى الذين قاتلهم المسلمون بالشام، كانت الرافضة من أعظم أعوانهم، وكذلك إذا صار لليهود دولة بالعراق وغيره تكون الرافضة من أعظم أعوانهم، فهم دائما يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم»[1]. اهـ

وقد لقيتُ بعض العقلاء من إخواننا أهل السنة في بغداد، في مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ في شعبان الماضي، فسألته: كيف أموركم في بغداد؟

فأجاب بجواب أبكاني ـ وحُقَّ لكلِّ مسلمٍ أن يبكي له ـ، قال: نحن أسرى عند الرافضة! واليوم ها هي العراق بكلّها وكلكلها وأجمعها أسيرةٌ للرافضة،

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٢٢٥).

وجميع أهل السنّة فيها أسرى للرافضة، وإلى الله وحده المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والرافضة ليس لهم قوة في ذاتهم، وإنما قوتهم مستمدة من أعداء الإسلام، ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية لما قال عنهم: «الرافضة أمة مخذولة، ليس لها عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا دين مقبول، ولا دنيا منصورة»[1].

وحقّ لنا أن نردّد ما قاله الشاعر:

وانزل على بغداد واندب أهلها ... دار السلام وقل عليك سلامُ

فإذا رأيتَ وقد عفت من أهلها ... واعتادها بعد الضياء ظلامُ

فانشد هناك وقل بقلب والِهٍ ... يا دار ما صنعت بك الأيامُ

ويْلاهُ يا بغدادُ أورثتِ الحَشَا ... نارًا لها بين الضلوع ضرامُ

ثَالِثاً ـ عِندَقِلَّةِ ٱلْعَمَلِ ٱلصَّالِحِ:

فالعمل والقرب من الله قليل، والناس تستحلي الكلام والتحليل، والابتعاد عن الوحي والابتعاد عن الثوابت الشرعيةِ والانشغال بالتحليلات التي يبثها العدو من خلال الإعلام؛ هذا من أسباب الفتنة، ومِنَ المعلوم أن اليهود يُسَيطرون على الإعلام العالمي.

إذا قامت مهمة النبيين في الأمة فإن الفتنة تنتحر، فقد بيّن النبي ﷺ مهام النبيين قبل أن يذكر أنّ الفتن يرقّق بعضها بعضًا، كم مرّ في الحديث ـ وقد مضى الكلام على بعض فوائده ـ: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها**

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨١٥).

في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنةٌ فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي. ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه»[1].

قال العلامة ابن أبي العز في مقدمة «شرحه على الطحاوية»[2]: (...اقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرّفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين). اهـ

فطالما سوق الإنذار والأمر والنهي والتعريف بالله قائمة، ومنابرها ظاهرة، فالفتنة بعيدة جدًّا، لأنّ تحقُّق رسالة النبيِّ ﷺ في الأمة، بينها وبين الفتنة علاقةٌ عكسية، إذا وُجدت إحداهما ضعُفت الأخرى.

لذا قلنا: إن الفتنة ينعقد نوارها عند الجهل، وعند قلة العمل.

ومنهج السلف في الفتنة أن نغزوها قبل أن تغزونا، وأن نحاربها قبل أن تجيئنا، وغزونا ومحاربتنا لها بأن نقوم بمهام النبيين: أن نكون لله داعين، وبه معرفين، ومبشرين ومنذرين.

والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٣].

فتأمل معي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ ولم يقل: (وأنت منهم)، وشتان شتان بين القولين، فلو أن الله قال: (وأنت منهم)، لكان هذا الأمان من نزول العذاب موقّتًا بوجود شخص رسول الله ﷺ الطاهر في هذه الأمة، ويزول هذا

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٦).

الضمان ويرتفع بموته ﷺ، فالحمد لله الذي قال: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، فما دام محمد ﷺ فينا فالعذاب مرتفع عنا وإن لم يكن بيننا بذاته.

فكونه ﷺ (فينا) أوسع من كونه (منّا)، فإن تعلّمنا وعلّمنا سنته ﷺ وكنّا دعاة لها، ونشرناها في الأمة، وعملنا بها، واستجاب الناس لنا، فحينئذ يكون محمد ﷺ فينا وهو ليس منا، فإن تحصلنا على ذلك، فقد حققنا سببًا من أسباب رفع العذاب عن الأمة.

وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣]، فالفتنة تكون بمخالفة أمر النبي ﷺ، وأكثر ما تكون الفتنة وتظهر لها قرونٌ في آخر الزمان، بمخالفة هدي النبي ﷺ.

فحتى ننجو من الفتن لا بد من الإقبال على العمل الصالح، أخرج البخاري عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أنّ النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال: «**سبحان الله! ماذا أنزل الليلة من الفتنة، ماذا أنزل من الخزائن، من يوقظ صواحب الحجرات؟ يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**»(١).

فأراد النبيّ ﷺ أن يوقظ صواحب الحجرات، والغرض من إيقاظهن أن يصلين، كما جاء ذلك مفسّرًا عند بعض من روى الحديث، فتأمل الارتباط بين التحذير من الفتنة والتحريض على الصلاة.

وفي صحيح مسلم يقول النبي ﷺ: «**العبادةُ في الهَرْج، كهجرةٍ إليَّ**»(٢).

في وقت الهرج تتجسد الفتنة، ففي وقت الفتنة أقبِل على العبادة.

---

(١) رواه البخاري (١١٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٨) عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ.

ويقول النبي ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[1].

زمن الفتنة زمن تذبذبات وتحوّلات، تصبح على شيء وتمسي على شيء، لذا فإنّ منهج السلف الصالح أنّك إن فتح الله لك في عبادة كطلب علم أو حفظٍ للقران أن تثبُت عليه، والتحوُّل والتنقل منهج بدعيٌّ كما يقول الإمام الشاطبي في «الاعتصام».

فالواجب على العبد في وقت الفتنة أن لا يعرِّض نفسه للفتنة وأن يبتعد عنها، وأن ينشغل بالطاعة والعبادة، وأن يعتزل الفتنة.

رَابِعاً ـ عِندَمَا يُلقَى ٱلشُّحُّ:

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم، فإنّ الظّلم ظُلُمات يوم القيامة، واتّقوا الشُّحَّ، فإنّ الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم**»[2].

ففي هذا الحديث بيانٌ جليٌّ للصّلة بين الشُّحِّ والهَرج! فإنَّ الهَرج هو أبرز صور الفتنة وأشرُّها.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودُخان جهنّم في مِنْخَرَيْ مسلمٍ، ولا يجتمع شُحٌّ وإيمانٌ في قلب رجلٍ مسلم**»[3].

---

(١) رواه مسلم (١١٨) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٣) رواه النّسائي (٣١١٤).

قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ: «والفرقُ بين الشُّحِّ والبخل: أنّ الشُّحَّ هو شدّة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه، والبخل منع إنفاقه بعد حصوله، وحبّه، وإمساكه، فهو شَحِيحٌ قبل حصوله، بخيلٌ بعد حصولِه، فالبخل ثمرةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يدعو إلى البخل، والشُّحُّ كامنٌ في النّفس، فمن بخلَ فقد أطاعَ شُحَّه، ومن لم يبخل فقد عصى شُحَّه ووُقِيَ شَرَّه، وذلك هو المفلح: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩]»[1]. اهـ

وقال النوويّ: «قال جماعة: الشُّحُّ أشدُّ البخلِ، وأبلغُ في المنع من البخل، وقيل: هو البخلُ مع الحرص، وقيل: البخل في أفراد الأمور، والشُّحُّ عامٌّ، وقيل: البخل في أفراد الأمور، والشُّحُّ بالمال والمعروف، وقيل: الشُّحُّ الحرصُ على ما ليس عنده، والبخل بما عنده»[2]. اهـ

وأيًّا ما كان، فعباراتُ أهل العلم تكاد تتّفق على أنَّ الشُّحَّ بخلٌ وزيادةٌ، وأنّه بُخلٌ مع حرصٍ شديدٍ زائدٍ على مجرّد المنع، على نحو يحملُ الشحيحَ على العدوان والظّلم وسفك الدماء، ومن كان كذلك، كان مهيّئًا تمام التّهيئة للدّخول في الفتنة والانغماس فيها.

ونرجع لنتذكر ما سُقناه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتقارب الزمان، ويُقبض العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشُّحُّ، ويكثر الهَرْج**». قالوا: وما الهرج؟ قال: «**القتل**».

فإذا ألقي الشُّحُّ سُفكت الدماء، وفشا الظلم، وقطّعت الأرحام.

---

(١) «الوابل الصيّب» (ص٤٩).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ١٣٤).

عندما يُلْقَى الشُّحُّ، يصبح الرجل مشغولًا بماله وثرائه، ويكون ماله لشهواته، ولا ينمِّي ماله كما كان السلف ينمّون أموالهم، وهذا المحور الأخير جديرٌ بالنّظر، وحريٌّ بالتأمّل.

قال الإمام الشاطبي ـ مؤصّلًا مقعّدًا ذلك ـ في كتابه «الموافقات»: «ومثلُ هذا محكيٌّ التزامُه عن كثير من الفضلاء، بل هو محكيٌّ عن الصحابة والتابعين»، فإنهم كانوا في الاكتساب ماهرين ودائبين ومتابعين لأنواع الاكتسابات؛ لكن لا ليدخروا لأنفسهم، ولا ليحتجنوا[1] أموالهم؛ بل لينفقوها في سبيل الخيرات، ومكارم الأخلاق، وما ندب الشرع إليه، وما حسَّنَتْهُ العوائد الشرعية، فكانوا في أموالهم كالولاة على بيوت الأموال، وهم في كل ذلك على درجات حسبما تنصّه أخبارهم». اهـ[2]

فكانت أموالهم رحمةً للأمّة، وسَنَدًا لنهضتها وعافيتها، ولم تكن سببًا في فتنتها وإراقة دماءها.

لذا في «مسند الإمام أحمد» وغيره عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضنّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزلَ الله بهم بلاءً، فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم**»[3].

إذن، تبدأ الفتنة تطل برأسها حينما تصبح الشهوات هي الحاكمة،

---

(١) واحتجان المالِ: إصلاحُه وجمعه وضَمُّ ما انتشر منه. «لسان العرب» (١٣/ ١٠٨) مادة (ح ج ن).

(٢) «الموافقات» (٢/ ٣١٦ ـ بتحقيقي).

(٣) رواه أحمد (٤٨٢٥) وغيره، وهو في «صحيح الجامع» (٦٧٧).

والمطامع هي الـمُحَرِّكة.

الخلاف حاصل، والناس يتقاتلون على الدنيا، هل يمكن للناس ــ مـثلًا ـ أن يصدقوا أن كلّ ما يجري في سوريا اليوم صراعٌ على الدنيا؟! لكن ذلك أُلـصِقَ باسم الشرع والفتاوى الشرعيّة! في حين أنّها جميعًا دنيا خالصة.

وإن لم تكن على المادّة تحديدًا، فعلى القضايا المعنوية التي ينشرها الإعـلام، ويهيِّج بعض النفوس لها، وإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فبيئة الفتنة تبدأ بالخلاف، ثمّ يشتد الخلاف، فينقص العمل، ويكثر الجهل، ويلقى الشح، وتنزع البركـة، ثمّ لا يبقى إلا أن نرى ما نشاهـده اليوم، وما نحن فيه الآن، والقادم أشدّ فيما أخبر عنه النبي ﷺ.

* * *

مُجْمَلَاتٌ وَخُلَاصَات

نستطيعُ أن نُجمل ما مضى بقولنا:

ٱلْمِحْوَرُ ٱلْعَامُّ ٱلَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلْفِتَن: الخلاف والافتراق الموصل إلى الخروج عن جماعة المسلمين بعامة، وإمامهم بخاصة.

وَثَمَرَتُهَا: استحلال الدم، وكثرة القتل والهرج.

وَمَادَّتُهَا: التكفير.

ووَسِيلَةُ أَصْحَابِهَا: مقالات بدعية، وأطروحات فكرية، وقوالب حزبية، ورصد الواقع، وتتبع الأحداث.

وَطَرِيقَتُهُم: التستر بمذهب السلف، وإبراز ما يشهد لبدعتهم من النصوص، وتضخيم زلات مخالفيهم.

يقول ابن تيمية عند كلامه على المبتدعة: «وإن كان من أسباب انتقاص هؤلاء المبتدعة للسلف، ما حصل في المنتسبين إليهم من نوع تقصير وعدوان، وما كان من بعضهم من أمور اجتهادية، الصواب في خلافها، فإن ما حصل من ذلك صار فتنة للمخالف لهم، ضلَّ به ضلالًا كبيرًا»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٥).

وَوَقْتُ ٱلْفِتْنَة: الجهل وقلة العلم والإيمان، وذهاب العدل في الأمة، وعدم إشراق نور النبوة، وعدم ظهور سلطان الحجة، والعمل من أمام العلماء، والتقدم عليهم، وانتقاصهم، وقطع العامة عنهم، والطعن في الأحكام الشرعية المستفادة من نصوص الشرع، والفُرقة والاختلاف.

قال ابن تيمية بعد كلام: «وكان شيطان الخوارج مقموعًا لما كان المسلمون مجتمعين في عهد الخلفاء الثلاثة؛ أبي بكر وعمر وعثمان، فلما افترقت الأمة في خلافة علي ـ رضي الله عنه ـ، وجد شيطان الخوارج موضع الخروج، فخرجوا، وكفّروا عليًّا ومعاوية ومن والاهما...»[1].

والشاهد من هذا كلِّه: أن النبي ﷺ بيّن منشأ الفتن، ووقت اشتدادها، والطريق التي توصل إلى (الدجال)، ومن المعلوم بيقين أن بدعة (الخروج) ـ وهي أول بدعة عقدية حدثت في الأمة ـ ابتدأت من العراق، وهاجت منها على كثير من البلدان، في سائر الأزمان، وستتوالى وتشتد، وقد شاهدنا بعض ذلك بارزًا للعيان، ولا قوة إلا بالله.

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٨٩).

ولنرجع إلى وقفةٍ أخرى مع حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، ونسوقه كاملًا لكي يسهُل علينا تأمّله.

عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإنَّ أمَّتكم هذه جُعِل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها، وتجيء فتنةٌ فيرقِّق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي. ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه.**

فمن أحبَّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فلْيطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

قال عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة: فدنوت منه، فقلت له: أَنشُدُك الله! آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه، وقال: سمعته أذناي، ووعاه قلبي[1].

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

تأمل معي ـ نفعني الله وإياك بكلام نبينا ﷺ ـ، تأمل معي هذا الحديث جيدًا لتعلم مزيدًا من منهج السلف في فهم الفتن:

(إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها).

وقد سبق أن بيّنّا أنّ الفتنة تكون ضعيفةً بل ميّتةً، على قدر قيام الدُّعاة بمهمّة النّبيّين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، من الإنذار والتعليم والتعريف بالله ـ تبارك وتعالى ـ.

ثم النبيّ ﷺ ذكر شيئًا مهمًّا، فقد ذكر أن الخير في هذه الأمة يتركز في الأول، وأن الآخر سيصيبه بلاء وأمور تنكرونها، ثم ذكر أن الفتنة يرقق بعضها بعضًا، فما معنى ذلك؟ معناه أن فتنة اليوم تجعل فتنة أمس رقيقة، وفتنة غد تجعل فتنة اليوم رقيقة، وهكذا.

لما قامت فتنة الخليج الأولى مع أول تسعينيّات القرن الماضي، سمعت شيخنا الألبانيّ ـ رحمه الله ـ يقول كلمة أنكرتها أولَ ما سمعتها، ثم تدبرتها كثيرًا!

سمعته يقول: (لم يمر بأمة الإسلام فتنة مثل فتنة الخليج، وفتنة الخليج يراد بها ما وراءها)، يقصد أنّ هذه الفتنة تتبعها سلسلة فتن، هذا كلام العلماء وأهل النظر، وأصحاب الفراسة والتوفيق.

أخبرنا النبيّ ﷺ أن الفتن يرقق بعضها بعضًا، وقبلها أخبرنا أن العافية في أول الأمة، كأنه ﷺ يقول: يا من أدركتم آخر الزمان! ويا من أدركتم الاختلاف في العقائد والأفهام! ويا من أدركتم الخلاف ـ كما تقول العرب ـ لأي سبب من الأسباب! إذا أردتم النجاة فعليكم بالتزام منهج السلف، فإن أمتكم هذه جعل

عافيتها في أولها، واعلموا أنكم إذا حدتم عن منهج سلفكم وقع الخلاف.

(وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها)، هكذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

الإعلام يصنع أبطالًا، ويفتح بلادًا، لكنها من خياله! ويمرر مؤامرات على الأمة، وينكر العاقل المتمسك بمنهج السلف كل هذا، وأعتى وأسوأ وأصعب وأبشع وأشنع مظاهر الفتنة وحالاتها، أن يغرق فيها البعض وهو لا يشعر.

فهذا الحديث فيه بعض أسباب النجاة، وأسباب النجاة المذكورة فيه قسمان:

الأول: على حد القاعدة المشهورة والمثل السائر: (درهم وقاية خير من قنطار علاج)، وهو أن نحُول دون تشكُّل الفتنة وتكوينها ووقوعها، بأن نقوم بمهام النبيين في الأمة، أن نعلّم وننشر الخير ونرغّب ونرهّب ونبشّر وننذر.

فإن كان لا بد منها، ووقعت وانتشرت، ولا سيما في حق أولئك القوم الذين سيتأخَّر بهم الزمان ـ وهم نحن ومن يأتي بعدنا ـ، فاثبت على الذي معك من المنهج الصحيح، فإنّ الثبات على الحقّ هو المصلحة العليا، وإن جاءت الفتنة تريد أن تأخذك إليها، وتجرفك في تيّارها، وتجرّك إلى الباطل، والشرع لا يأذن بأن تشارك فيها، فالواجب عليك تركها حتى لو وصل الحال بك إلى الموت، وقد مرّ في الحديث ـ كما رأينا ـ أنّ المؤمن يقول عنها: **(هذه مهلكتي)**!

ولا بدّ لنا هنا من التعريج على قضية مهمة، جَنَتْ الأمة شرًّا كثيرًا بسبب المفهوم الخاطئ عنها.

* * *

مَفْهُومُ ٱلنَّصْرِ مَاهُوَ؟

مفهوم النصر ضيِّق عند كثير من الناس، فالله ـ جل في علاه ـ يقول لنبيه ﷺ في سورة التوبة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فمَنْ من الناس اليوم يتسع قلبه وعقله أنَّ نبيَّنا محمدًا ﷺ والصدِّيق أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ في الغار، والكفار يبحثون عنهما وهما مختبئان، وهما على ذلك الحال منصوران!

هذا المفهوم المغيّب للنصر ليس موجودًا عند الحركيين والحزبيين، ولذا موقفهم في الفتن موقفٌ اندفاعيٌّ حماسيٌّ مشوّش، وليس هو الموقف الشرعي الصحيح.

إذن، الثبات في وقت الشدة على المبدأ الحقّ نصر، ومقدمات النصر نصر، والنبي ﷺ خرج من مكة إلى المدينة، وهذه مقدمات النصر، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾. فالمفاهيم ينبغي أن نحققها، وينبغي أن نعرض مفاهيمنا على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

لذا عليك أن تثبت على الحق الذي عندك في الفتنة، فالفتنة العمياء إذن، التي لا يعرف فيها الحق من الباطل، ويكثر فيها الهرج، ما موقف السنيّ منها؟

الجَوَابُ:

أن يكون عبد الله المقتول لا عبد الله القاتل، كما صح ذلك عن النبي ﷺ، فلماذا يكون كذلك؟

جوابه في تتمّة حديث عبد الله بن عمرو: (**فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر**).

الثاني: الإيمان الشرعي الصحيح، هذا إذن هو الثاني من أسباب النجاة من الفتنة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[الحشر: ٩]، فالدّار تستظل تحت سقفها من حرّ الشمس، والإيمان تستظل تحته من الفتنة.

وخذ ـ مثلًا ـ من أسباب النجاة من فتنة الدّجال وهي من الفتن المخيفة الكبرى، إذ يخرج الدجال معه جنة ونار، فناره جنة وجنته نار، وقد جاء في الحديث: «**مكتوب بين عينيه (ك ف ر)، يُهَجَّاهُ** ـ أي: يقرؤه ـ **كلُّ مؤمنٍ، أمّيٌّ أو كاتب**»[1]، فتأمّل ذِكرَ الإيمان وترتيب النجاة عليه في هذا المقام.

فمن أسباب النجاة من الفتنة الإيمان، أن تؤمن بالله إيمانًا صحيحًا وتعتقد فيه ما يليق به ـ تبارك وتعالى ـ، فالذين لا يعلمون الإيمان ولا العقيدة الصحيحة سرعان ما تسحبهم الفتنة وسرعان ما تأخذهم، بينما عندما يرسخ الإيمان في قلبك، حتى لو خرج الدجال نفسه فإنك تقرأ ما بين عينيه، وتعتقد اعتقادًا جازمًا أن النار التي تراها بعينيك جنة، وأن الجنة التي تراها بعينيك نار، فمن يقدر على هذا إلا أصحاب الإيمان الثابت ثبات الجبال.

ثم اسمع قوله ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو السابق: (**ولْيأتِ إلى الناس**

---

(١) رواه أحمد (١٣١٦٨) **بإسناد صحيح**.

الذي يحب أن يُؤْتى إليه).

من فقه الفتنة، أن تعامل الناس في وقتها بالفضل لا بالعدل، لأنّ معاملة الناس على وفق ما تحبّ أن يعاملوك به فضلٌ[1].

قال الامام الطحاوي: «لا يقلد إلا غبي أو جاهل»[2].

وأنا أقول: لا يتحزَّب إلا الكاذب.

لا أذكر رجلًا يدعو إلى حزب إلا ويكذب، لا أعرف رجلًا يجعل نفسه أصل الخير وأصل الشر إلا يفتري ويكذب، الأصل في الإنسان أن لا يدعو لنفسه، نفسه لا تساوي شيئًا، يدعو لدين ربه، فما وافق الحق أخذه وتلقَّاه على العين والرأس، قال الإمام الشعبي ـ وكان من كبار التابعين، وقد لقي مئة وعشرين من الصحابة، وأخذ عن جمهورهم ـ: «ما جاءكم به هؤلاء عن أصحاب رسول الله ﷺ فخذوه، وما كان من رأيهم فاطرحوه في الحش»[3]، والحش: هو النخل المجتمع أو البستان،

---

(١) وكأنّ هذه الإشارة النبويّة الجليلة مفتاح تأصيلٍ لبابٍ سيحتاج إليه من يشهد الفتنة، وذلك أنّ من خصوصيات الفتنة في الأحكام أن يحمل المؤمن نفسه على التساهل واللِّين في استيفاء حقوقه، لأنّ الغالب على عقول عامة الناس في الفتنة الحمق والطَّيش، ويؤكّد هذا المعنى إرشاد النبيّ ﷺ إلى السكوت عن خسارة المؤمن لنفسه؛ إذ أُمر أن يكون عبد الله المقتول لا القاتل، مع أنّ الصورة الموصوفة في الحديث صورة عدوان محض، فلا ريب أنّ تغافل المؤمن عن بعض حقوقه ومُداراته لأهل الشرّ زمن الفتنة أوجب وأظهر، والله أعلم.

(٢) نقله ابن عابدين في «رسم المفتي» (١/ ٣٢ ضمن «مجموع رسائله»).

(٣) أخرجه الدارمي (١/ ٦٧) ـ ومن طريقه الذهبي في «السير» (٤/ ٣١٩) ـ وبنحوه عند عبد الرزاق (٢٠٤٧٦) ـ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣١٩) وابن عبد البر في «الجامع» (١٤٣٨) والبيهقي في «المدخل» (٨١٤)ـ.

ويكنى به عن مواضع الغائط؛ لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين.

لكن من يريد أن تكون ذاته هي الأصل، وأن يعمل على وجود محبين لـه، وينساق وراء رضاهم، وأن الناس يناصرونه لذاتـه؛ فهـذا أشر نـوع مـن أنـواع التحزُّب والتشرذم.

* مَفْهُومِ ٱلْجَمَاعَةِ وَٱلْبَيْعَةِ:

لذا في زمن الفتنة تكون النجاة بأن نحسن تصوُّر المفاهيم الشرعية ولا سيَّما مفهوم الجماعة ومفهوم البيعة، وهذه مفاهيم أخذت عن جماعات من الناس معاني حادثة، ووجدَتها حركات تريد الخير فقالت حقًّا ولم تصنع عدلًا، فأسقطتها على غير واقعها، بدأت لترفع الاستعمار عـن الأمـة، فلـما ابتعـد الاسـتعمار وتنحَّـى وخرج من ديار المسلمين، جعلت مكان الاستعمار[1] الحكَّام، فأشـغلت أنفسها

---

(١) مادة هذه الكلمة هي (العمارة)، ومن مشتقاتها التعمير والعمران، وفي القرآن: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١]، فأصل هـذه الكلمة في لغتنا طيب، وفروعها طيبة، ومعناها القرآني أطيب وأطيب، ولا ننكر من استعمالاتها على ألسنة خاصتنا وعامتنا إلا «العمارة» الدرقاوية.

ولكن إخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث؛ ظلم لها، فاستحقَّت الدخول من هذا الباب، والإدراج تحت هذا العنوان.

فالذي صيَّر هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس، ثقيلة على الأسماع، مستوخمة في الأذواق؛ هو معناها الخارجي ـ كما يقول المنطق ـ، وهو معنى مرادف للإثم، والبغي، والخراب، والظلم، والتعـدي، والفـساد، والنهـب، والـسرقة، والـشَّره، والقـسوة، والانتهـاك، والقتل، والحيوانية... إلى عشرات من مئات من هذه الرذائل تفسرها آثـاره، وتـنجلي عنها وقائعه.

وواعجباه! تضيق الأوطان على رحبها بهذه المجموعة، وتحملها كلمة لا تمُتُّ إلى واحد =

بالحكام قدحًا وذمًّا وشتمًا، فحينئذٍ أضروا أكثر مما نفعوا، شغلوا أنفسهم بأشياء لا تجدي، للسلطان حق على الإنسان أن ينصحه إن رأى منه شرًّا بينه وبينه، ولكن يشغل الناس بالخير. لو أنَّ طبيبًا جاءه رجل معه إسهال، فأصبح يخبره عن الأمراض الخطيرة، فإن هذا لا ينفع المريض؟! فلا ينبغي أن نشغل أنفسنا إلا بما ينفعنا. قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها في الإمام، فإن صلاحه صلاح العباد والبلاد، وفساده فساد العباد والبلاد»، فقبَّل ابن المبارك جبهته وقال: يا معلِّم الخير! من يُحسِن هذا غيرك[1]، الاشتغال

= منها بنسب، وإذا كنا نسمي من يجلب هذه المجموعة من كبائر الإثم والفواحش إلى وطن: ظالمًا، فأظلم منه من يحشرها في كلمة شريفة من لغتنا ليخدع بها ويَغُرَّ، وليُهوِّن بها على الفرائس شراسة المفترس، وفظاعة الافتراس.

أما والله! لو أن هذا الهيكل المسمى بالاستعمار كان حيوانًا؛ لكان من حيوانات الأساطير: بألف فم للالتهام، وألف معدة للهضم، وألف يد للخنق، وألف ظلف للدوس، وألف مخلب للفرس، وألف ناب للتمزيق، وألف لسان للكذب وتزيين هذه الأعمال، ولكان هائجًا بادي السوءات والمقابح على أسوأ ما نعرفه من الغرائز الحيوانية.

سَمُّوا الاستعمار: تخريبًا ـ إذ لا تصح كلمة استخراب في الاستعمال ـ؛ لأنه يُخرِّب الأوطان، والأديان، والعقول، والأفكار، ويهدم القِيَم، والمقامات، والمقوِّمات، والقوميَّات.

وخذوا العهد على المجامع اللغوية أن تمنع استعمال هذه الكلمة في هذا المعنى الذي لا تقوم بحلله عربة مزابل.

قاله البشير الإبراهيمي في «عيون البصائر» (ص٥٨٣).

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤٨) و«فضيلة العادلين» رقم (٤٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٤/ ق٢٨٦ ـ ٢٨٧)، ومقولته في «المكاسب والورع» (١٣٢) للحارث المحاسبي، و«جامع بيان العلم» (١١١٠)، و«السنة» (١١٣) للبربهاري، والقرطبي في «تفسيره» رقم (١٣٤٩٤) (٢٦٠/ ٥).

بالشتم والطعن واللعن وعدم تعليم الناس؛ هذا مسلك آثم، مسلك يزيد الفتنة في الأمة، رأينا أشياء كثيرة هنا وهناك في خارج ديارنا ولله الحمد والمنة، وعلمنا كيف أن الفتنة قد زادت بسبب هذه العقدة الموجودة في الأفهام وفي عقول الناس وفي مناهج أولئك المتعجلين، أولئك الذين أنزلوا النصوص في غير مواطنها، هذه أسباب شرعية قائمة على نصوص الكتاب والسنة جلُّها من أحاديث رسول الله ﷺ، إن تلمَّسناها وأدركناها وعملنا بها جنَّبنا ـ إن شاء الله ـ أنفسنا وغَيرنا ممن يلوذ بنا من الفتنة.

* * *

تَحْرِيرُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْعُزْلَةِ

اعتزال الفتنة من أهمّ أسباب النّجاة منها والسلامة من شرّها.

يقول النبي ﷺ: «**ستكون فتنٌ، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، ومن يُشْرِفْ لها تستَشْرِفه، ومن وجد ملجأً أو معاذًا فليَعُذْ به**»[1].

فالواجب في آخر الزمان العزلة، إذ «الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين، قال ـ تعالى ـ عن كليمه موسى ـ عليه السلام ـ ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[الشعراء: ٢١]»[2]، ولكن هذه العزلة لا بد أن تكون شرعية، ومن الغرائب والعجائب أنّه بلغني من بعض إخواني القادمين من فلسطين ـ أعادها الله إلى حظيرة الإسلام والمسلمين ـ أنّ بعض الناس الذي يدّعي لنفسه العزلة الشرعية، يؤذّن للجمعة في المسجد الأقصى المبارك، ويبقى المسكين جالسًا لا يجيب النداء، ويعتبر أنّ هذه هي العزلة الشرعية المرغب فيها عند الفتن!!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦١٢): «وهذه الطريقة طريقة بدعية، مخالفة للكتاب والسنة، ولما أجمع عليه المسلمون، والله ـ تعالى ـ

---

(١) رواه البخاري (٧٠٨١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) «درر العقود الفريدة» (٣/ ٤٣٩).

إنما يُعبدُ بما شرع، لا يُعبد بالبدع، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى: ٢١]؛ فإن التعبد بترك الجمعة والجماعة بحيث يرى أن تركهما أفضل من شهودهما مطلقًا كفر، يجب أن يستتاب صاحبه منه، فإن تاب وإلا قتل، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن لا يُعبد بترك الجمع والجماعة، بل يُعبد بفعل الجمعة والجماعة، ومن جعل الانقطاع من ذلك دينًا؛ لم يكن على دين المسلمين، بل يكون من جنس الرهبان الذين يتخلون بالصوامع والديارات، والواحد من هؤلاء قد يحصل له بسبب الرياضة أو الشياطين ـ بتقريبه إليهم، أو غير ذلك ـ نوع كشف، وذلك لا يفيده بل هو كافر بالله ورسوله محمد ﷺ».

أول من ألّف في العزلة الإمام ابن أبي الدنيا، وكان همُّه في مؤلَّفه ومصنَّفه أن يجمع النصوص من الأحاديث والآثار الواردة في ذلك، وقد يسّر الله لي ـ ولله الحمد والمنّة ـ أن حقّقته عن نسخةٍ وحيدةٍ موجودةٍ في إيرلندا.

وأوّل من قعّد مفهوم العزلة وأصّله الإمام الخطابي في كتابه (العزلة)، وبيّن أن معنى العزلة في زمن الفتنة يكون على ثلاثة معانٍ مجتمعة لا مفترقة، فالإمام الخطابي بعد كلام وتفصيل وتأصيل، بيّن أنّ العزلة لا بدّ أن تنضبط بثلاثة أشياء:

ٱلْأَوَّل: أن لا تدع الجمعة ولا الجماعة.

ٱلثَّانِي: أن تختار لنفسك صحبة خاصة في وقت الفتنة، تنتقيها بمعيار شرعي دقيق.

ٱلثَّالث: أن لا تتبطّر وتتوسع في المباحات.

فهذه معالم العزلة الشرعية في آخر الزمان، ننشغل بالعبادة ولا ننشغل في

التوسع في المباحات، فالتوسع في المباح يجر إلى المكروه، والمكروه يجر إلى الحرام، والعزلة كما قال الربيع بن خثيم: (تفقّه ثمّ اعتزل)[1].

فينبغي أن تكون العزلة بالمفهوم الشرعي الذي بيّنه الخطابي، وتكون عن علم وفقه، ولذا من بديع ما نقله العلامة علي القاري في كتابه «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» قوله: «ولذا قال بعض العارفين: العُزلة بغير عين العلم (زلّة)، وبغير زاي الزهد (علة)»[2].

فالعزلة تحتاج إلى علم وزهد معًا.

وفي الأحاديث النبويّة الشريفة ما يكفي من بيان صفة العزلة، ووقتها، وهيئتها الشرعية التي تضع حدًّا فاصلًا بين العزلة الشرعيّة وبين الهيئات المبتدعة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**كيف أنت إذا بقيت في حثالة من الناس؟**» قال: قلت: يا رسول الله! كيف ذلك؟ قال: «**إذا مرجت عهودُهم وأماناتهم، وكانوا هكذا**» ـ وشبّك يونس[3] بين أصابعه يصف ذاك ـ قال: قلت: ما أصنع عند ذاك يا رسول الله؟ قال: «**اتق الله ـ عز وجل ـ، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصتك، وإيّاك وعوامّهم**»[4].

ولذا فقد ختم الخطّابيُّ كتاب (العزلة) له ببابٍ قصد منه صيانة الأفهام عن الطَّيش والمبالغة في العزلة التي قد تنقلب إلى ما لا يُرتضى شرعًا، ولا تكون

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العزلة والانفراد» (٣٦ ـ بتحقيقي).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٩/ ٢٨٢).

(٣) أحد رواة الحديث.

(٤) رواه أحمد (٦٥٠٨).

على طريقة السلف، فقال: (بابٌ: في لزوم القصد في حالتي العزلة والخلطة).

قال فيه: «والطريقة المثلى في هـذا الباب أن لا تمتنع من حقٍّ يلزمك للناس وإن لم يطالبوك به، وأن لا تنهمك لهم في باطلٍ لا يجب عليك وإن دَعَوْكَ إليه، فإنّ من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه، ومن انحلَّ في الباطل جَمَدَ عن الحقّ، فكن مع الناس في الخير، وكن بمعزل عنهـم في الشرّ، وتوخَّ أن تكون فيهـم شاهـدًا كغائب، وعالمًا كجاهل»[1]. اهـ

وقوله ﷺ في الحديث السابق: «**عليك بخاصتك**» فيه إشارة إلى قيام العلماء ومساعديهم من الدعاة وطلبـة العلم بالواجب عليهم، فلكل خاصته التي تعنيه، ممن يعرف قـدر العالم من تلاميـذه وخاصتـه وأهل بلدتـه يدخلون في قوله ﷺ: «**وعليك بخاصتك**».

فالعزلـة التي هي الانكفاف إلى المغارات والكهوف ليست من ديننا، وإنما هي من دين اليهود والنصارى!

* * *

(١) «العزلة» (ص٢٣٧).

إِسقَاطُ ٱلْأَحَادِيث ٱلنَّبَوِيَّة عَلَى ٱلْوَقَائِع

لا ريب أنّ هذا بابٌ في غاية الدّقّة، وله أصول وضوابط، كما أنّ له محاذير.

وهذا مما يقع في الخلل بين طلبة العلم، وهم في هذه المسألة على أنواع وضروب:

فمنهم: من يُسقط ويراعي المطلوب، فيصيب.

ومنهم: من يتعجّل في ربطه وإسقاطاته، فيخطئ ويسيء.

ومنهم: من يجهل الباب بالكلّيّة ويُعرض عنه.

في «صحيح مسلم» عن أبي نوفل قال ـ وهو يروي شهوده لصلب ابن الزبير بعد أن قتله الحجاج ـ، قال: (...ثم أرسل ـ أي: الحجاج ـ إلى أمه أسماء بنت أبي بكر، فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول، لتأتينّي أو لأبعثنّ إليك من يسحبك بقرونك.

قال: فأبت، وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إلي من يسحبني بقروني. قال: فقال: أروني سِبتيَّ، فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذَّف حتى دخل عليها، فقال: كيف رأيتني صنعت بعدو الله؟! قالت: رأيتك أفسدتَ عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، بلغني أنك تقول له: يا ابن ذات النطاقين! أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما: فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر من الدوابّ، وأما

الآخر: فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه.

أما إنّ رسول الله ﷺ حدّثنا أن في ثقيف كذّابًا ومُبيرًا، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه.

قال: فقام عنها ولم يراجعها)[1].

فقالت أسماء للحجاج إنّ النبي ﷺ أخبر أنّ في ثقيف كذابًا ومبيرًا، وأخبرته بأنّ الكذاب صار معروفًا معلومًا، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي مدّعي النبوّة، وأمّا المبيرُ وهو المدمّر المهلك، فأخبرت أسماءُ الحجّاج أنها لا تخاله إلا هو.

فماذا صنعت أسماء ـ رضي الله عنها ـ؟ لقد أسقطت حديثًا على شخصٍ، لكنها أسقطته بظنّ، لأنّ إسقاط الأحداث على الأحاديث مشروط بضوابط، واستباق الأحداث والتسليم لها بظن وحدس وتخمين، إنما وقع على ألسنة المعتبرين من أهل السنة فلتةً[2]، وليس هو أصلًا، ولا مَعْلَمًا من معالم المنهج، لأن الذي يريد أن يوقع الأحداث على الأحاديث إنما يريد إيقاف عجلة الزمان.

وأحاديث الفتن من الغيب الذي أوحاه الله إلى نبيِّه ﷺ، فالله لا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول، فليس من منهج السلف مثل هذا الإسقاط، بل منهج السلف مقاومة انعقاد نوّار الفتنة ومنع حدوثها، واستبعاد أسباب وجودها من واقع الأمة، ولكن إذا وقع إسقاط بضوابط شرعية وبفهم شرعي صحيح، فلا حرج.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٥).

(٢) هذا على تأصيل الشاطبيّ في «الموافقات» من (مُلح العلم) لا (صُلْبه)، وخصّه بـ (المقدمة التاسعة) من كتابه. انظر منه: (١/ ١٠٧ وما بعدها ـ بتحقيقي).

ولكن من أهم أسباب الخلل في الإسقاط، اعتمادُ طرق ليست شرعية في الفهم والإثبات، كأن نعتمد على أخبار بني إسرائيل، أو أخبار (هرمجدون) عند المثقفين والمعاصرين! أو على (الجفر) عند التراثيين الذين كلامهم كله ترّهات، أو يعتمدون أخبار الفتنة الواردة في كتاب (الفتن) لنُعيم بن حماد الضعيف، الذي كان يخلط بين الأخبار، أو ما شابه من الطرائق غير الشرعية، والمسالك غير المرضية عند العلماء، أو أن تُفهم الأحاديث الثابتة على غير فهم السلف.

قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «يجب على كلّ ناظر في الدّليل الشرعيِّ مراعاةُ ما فهم منه الأوّلون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل»[1]. اهـ

فلا بد في الجملة لكي يكون الفهم صوابًا من أمرين:

ٱلْأَوَّل: أن تفهم النص وفق اللغة العربية.

ٱلثَّانِي: أن لا تحمِّل النص فوق ما يحتمل.

والمقصود بذلك أن تفهمه على قواعد الدّلالات المقررة عند أهل العلم، أما أن تبحث عن حساب الجُمَّل، وما يلحق ذلك من طرائق الكهانة والسحر والشعوذة، فكل هذه طرق ليست شرعية، وورد في حساب الجُمَّل حديث واحد ضعيف لا يجوز الاعتماد عليه، بل يجب ـ حتى يسلم لنا الفهم ـ أن نفهم الأخبار على وَفق فهم المخاطَبين.

وللتمثيل لذلك، فالنبي ﷺ أخبرنا عن نهر الفرات سيصير نهرًا من ذهب[2]،

---

(١) الموافقات (٣/ ٢٨٩ ـ بتحقيقي).

(٢) روى البخاري (٧١١٩) ومسلم (٢٨٩٤) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: =

فلا يجوز لنا أن نقول: الذهب هو البترول! بل على وفق لغة المخاطَبين وفهمهم: الذهب هو الذهب، ولا نقول: الذهب الأبيض هو الحديد والأسود هو البترول! هذا لعبٌ بالنصوص واعتداءٌ على دلالاتها، وهدمٌ لقواعد الاستدلال الصحيحة.

ومن البصائر الضروريّة التي لا بدّ أن نبقى منها على ذكرٍ عند ولوج هذا الباب، أعني: باب إسقاط الأحاديث على الوقائع، وكذلك عند محاكمة المحاولات التي بين أيدينا لذلك، أن ندرك أنّ الفتنة عندما تشتدّ تكون عمياء، صمّاء، لها خفايا، وتذهبُ بالعقول، وتشوّش على التصوّرات، ولا يُوفّق فيها إلا من شغل وقته في الاستعداد لها والتحصن منها بالوسائل الشرعيّة.

أخرج أبو نعيم في «الحلية» عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ، قال: «ما الخمرُ صِرْفًا، بأذهب بعقول الرجال من الفتنة!»[1].

فـ«الفتنة لا تجيء تهدي الناس، ولكن تجيء تقارع المؤمن عن دينه»، هكذا قال مطرّف بن عبد الله بن الشخير، فيما أسند عنه أبو نعيم في «الحلية»[2] وغيره.

فغفل هؤلاء العابثون في أحاديث الفتن، الخائضون فيها للرُّكب عن هذه الحقيقة؛ فظنوا أنها جاءت لهدايتهم! وغفلوا عن أنها قرعت عقولهم، وأذهبتها وأضعفت دينهم وأوهنته، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

والنّاظر فيما وقع قديمًا من محاولات بعض أصناف الناس من الجهّال

= (يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا). وفي لفظ: (جبل) بدلًا من (كنز).

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٤).

(٢) المرجع نفسه (٢/ ٢٠٤).

والقصّاص إجراء بعض التكهّنات[1]، عن طريق إسقاط أحاديث الفتن على بعض الوقائع، ثمّ مقارنتها بما رأيناه في زماننا، يجد بين الصورتين تشابهات لا يخطئها البصر، ولا ينبو عنها النظر، فمن ذلك:

أَوَّلاً: أنها تنبؤات فردية وشخصية، تلازم أناسًا معيَّنين، لعوامل نفسية، وقد تكون مشبوهة، أو لأطماع دنيوية، تشغل عوام الناس، وذكر ابن خلدون في مطلع «تاريخه» (١/ ٤١٨ ـ ٤٢٠) نماذج عديدة من صنيع هؤلاء، وأنّهم

---

(١) من مثل كتاب طبع في مصر بعنوان: «أسرار الساعة وهجوم الغرب»؛ يقول تحت عنوان: (السيناريو المحتمل لتسلسل حوادث الفتن) (ص١٤١): «في عام ١٩٩٨ تشتغل الناس باللعب واللهو في أولومبيات باريس، ثم تفاجئهم علامات الساعة الكبرى وهم في غفلتهم يلعبون...

في ١/ ١/ ١٩٩٩ وفي الساعات الأولى من صباح يوم الجمعة ١٥ رمضان ١٤١٩هـ يتم ارتكاب العمل الكوني المفزع وهو تفجير المسجد الأقصى، وفي نفس اليوم تصل طلائع القوات الغربية وتنزل الأردن وتحاصر بيت المقدس».

ويقول في (ص١٣٦): «بعد تفجير الأقصى يتم دخول الجيوش الغربية الأردن وفلسطين، وتطوّق القدس حماية لليهود حتى يكملوا بناء الهيكل في المسجد».

ويكتمل مسلسله بما صرَّح به (ص٨٤) فزعم أن المهدي يظهر يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ محرم ١٤٢٠هـ، ويحدد المدة بين ظهور المهدي ونزول عيسى بأنها ثمانية أشهر.

وزعم (ص١٤٦): «في ١ ربيع الثاني ١٤٢٠الموافق ١٤/ ٧/ ١٩٩٩ ينطلق صاروخ نووي من الخليج إلى أوروبا مستهدفًا الفاتيكان حسب الخطة المرسومة».

وزعم في الصفحة نفسها: «في ١٩ ربيع الثاني ١٤٢٠ تبسط إيران سيطرتها على معظم دول الخليج، وبعد ذلك يتم إلقاء قنبلة نووية أمريكية تدمر إيران بعد أن دمرت الخليج». إلخ هذا الهراء.

كُشِفوا بمضيّ الزمن.

ثَانياً: هذه النبوءات ليست قائمة على أصول علمية، وقواعد مطردة، ترجع إلى تعليل أو تحقيق، بل يقطع بها عابثون مراهقون، وقد تسبِّب زيادة طمع الأعداء، ووقوع التربص بهم وببلدانهم، وهي لا تظهر إلا في الساعات الحرجة من تاريخ الأمة، ولما تقف على مفترق الطرق، فهؤلاء يُمهّدون للأعداء بتهيئة النفوس وترويضها إلى نصر دون عناء! وفتح بلاد غير الأعداء!

وكَشَفَ عن هذا ابن خلدون، فقال ـ بعد كلام عن استكناه الغيب، وتطلُّب معرفته، وبطلان ذلك من النصوص ـ:

«فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع، وضَعْفُ مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث من عقائد العوام من الفساد إذا اتّفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقًا لا يرجع إلى تعليل، ولا تحقيق، فيَلهج بذلك من لا معرفة له، ويظن اطّراد الصدق في سائر أحكامها، وليس كذلك، فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها.

ثم ما ينشأ عنها كثيرًا في الدول من توقع القواطع، وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة[1]، وقد شاهدنا من ذلك كثيرًا، فينبغي أنْ تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران؛ لِمَا ينشأ

---

(١) أعجبني ما قاله المقريزي في «درر العقود الفريدة» (٣/ ٢٠٦) في ترجمة (محمد بن عبد الله بن عبد العزيز): «وهو والد صديقي ناصر الدين محمد بن عبد العزيز، وخرج يومًا فرآني وولده ناصر الدين، ونحن نتذاكر شيئًا من الإنكار على أفعال السلطان، فقال لنا: البطَّالون أعداء الدول، رحمه الله فقد تأدبت بكثير من آدابه».

عنها من المضار في الدين والدول»[1].

ثَالِثاً: كثير من هذه التنبؤات لا مستند لها من الأخبار والآثار الصحيحة، بل هي منقولة من أخبار القَصَّاصين الأقدمين، وجاء المعاصرون وتعاملوا معها على أساس غير علمي، فضلًا عن التثبت من صحة أصل هذه الأخبار.

ووجه الشبه ـ في زماننا ـ في هذه الظاهرة مع من قبلنا:

أنّ هذه الأحداث، تحت إلحاح سؤال العامة، وميل النفس البشرية بطبيعتها إلى معرفة المخبوء، تفرز تصوّرًا لمجريات ما سيحدث، ويُتلمّس لهذا التصوّر صبغة القبول والإذعان وعدم ردّه أو المناقشة فيه، من خلال إلصاقه بالشرع بانضوائه تحت الأحاديث التي فيها ذكر للفتن، فيقع الكذب الصُّراح على رسول الله ﷺ.

وعلى الرغم من أنّ هذا الدس الرخيص كاد أنْ يتوقّف، إلا أنّ أسبابه لما تجدّدت عاد فظهر في هذه الآونة، وبسبب انتشار القلم ـ اليوم ـ؛ فإنّ واضعي هذا الدس مطالبون بمستند، والكتب المطبوعة موجودة في المكتبات العامة، وبإمكان أي واحد الوقوف عليها، فلم يبق متعلَّق لهؤلاء إلا المخطوطات، وهي كثيرة، موزعة في أرجاء المعمورة، والخبراء بها قلّة من الباحثين، فتسلل بعض الكذابين المعاصرين لواذًا إلى هذا الميدان، واقتحموه بهلكة، واخترعوا أسماء مخطوطات ومؤلّفين ما لهم وجود، ونقلوا منها أخبارًا صاغوها بعبارات ركيكة، بنوا عليها تنبؤات، سرعان ما ظهر كذبها.

وثمة أمر مهم؛ وهو: أنّ الكذابين طبقات؛ من حيث زمن الوجود، ومن

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (١/ ٧١٦).

حيث اصطناع الخبر، وتقصّده، وراج على متأخّريهم ـ دون قصد منهم للكذب ـ كذبُ متقدِّميهم.

قال ابن الجوزي: «وفي القُصّاص من يسمع الأحاديث الموضوعة فيرويها، ولا يعلم أنها كذب، فيؤذي بها الناس، وقد صنّف جماعة لا عِلْمَ لهم بالنقل كُتبًا في الوعظ والتفسير ملؤوها بالأحاديث الباطلة»[1].

رَابِعَاً: قد يقول قائل: ليست جميع الأحاديث التي يستدل بها هؤلاء كما زعمتَ، فبعضها حكم عليها أصحاب الصنعة الحديثية بالصّحة؟!

فأقول: نعم؛ عندهم قليل من هذا الصنف، ولكنه مَسُوقٌ في أجواء تلك الأخبار التي لا أزمّة لها ولا خطام، وموضوع بين ذاك الركام، على وجه فيه تحريف للكلام، ولعب على عقول السذّج من العوامّ، وهاكم معالم هذا التحريف ملخّصةً في مظهرين مهمّين:

أَوَّلاً: فَهِمَ هؤلاء الخائضون العابثون أحاديث الفتن على غير منهج السلف الكرام، وجعلوها أداةً للخنوع والاستسلام، وانتظار ما سيقع بالناس من الفتن العظام، وأخرجوها عن المقصد الأصلي لقائلها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، من التحذير والحرص على عدم التلبّس بأسبابها، والوقوع في إرهاصاتها، والعمل على البُعد عنها وإبعادها، فقلبوها وغيّروها وحرفوها.

ثَانياً: أما التحريف؛ فيشمل: تحريف الألفاظ، وتحريف المعاني، ولذلك شواهد من القديم والحديث بسطتُها في كتابي (العراق في أحاديث وآثار الفتن)، فلتُراجع.

---

(١) «القصاص والمذكرون» (ص٣٠٩)، «تحذير الخواص» (ص٢٧٧).

وبعد هذه الجولة المختصرة لهذه الظاهرة الخطيرة نقول: إنّ أحاديث الفتن لكي يتمّ ربطها بالوقائع ربطًا سليمًا، ودون محاذير، يجب أن تُراعى فيها الضوابط الآتية:

أَوَّلاً: لا بُدّ من التحقق من صحة النّص، والتثبت من ألفاظه وحصر مرويّاته؛ لتمكن معرفة معانيه على ضوء ذلك.

ومهما بذل الناظر من جُهدٍ في فهم النص، وأخلص وتفانى في سعيه إلى التوصل إلى المراد منه، أو إسقاطه على حدث ما؛ فإنّ سعيَه كلَّه يظلُّ جهدًا غير معتبر ولا مفيد، إذا تبيّن أن النّصّ غير ثابت، ولذلك؛ فلكي يستفيد الباحث من وقته وجهده فلا بُدّ له من مراعاة هذا الضابط المهم، وهو أساس كل شيء.

وهكذا يقال في ضرورة جمع الألفاظ والروايات؛ فإن المنصوص عليه مقدّم على الاستنباط، ومهما سعى واجتهد الشارح في توجيه النص وتنزيله؛ فإنه بمجرد ثبوت لفظة أو جملة في رواية أخرى تخالف هذا التوجيه والتنزيل، تجعله في حكم العدم، وهو على أحسن حالاته: اجتهاد مخالف للنص؛ فلا عبرة به، ولا يفرح له!

ونستطيع أنْ نقرر هنا: أنّ هذا الضابط المنهجي مغيَّب تمامًا عن كثير من الدراسات التي ظهرت أخيرًا عن أشراط الساعة والملاحم؛ إذ رام أصحابها إسقاط هذه الأحاديث على وقائع معيّنة قام في ذهنهم أنها هي المعنيَّة بالنصوص، فأخذوا يفتشون في بطون الكتب بغية الإسقاط، فأقاموا بناءً على مقدمات غير مسلَّم بها، ولم يتم ـ بعدُ ـ التحقيق في صحتها وثبوتها، فأضاعوا جزءًا وفيرًا من أوقاتهم، وأوقات الرادِّين عليهم، المنبِّهين على اعوجاج طريقتهم بسبب عدم

مراعاة هذا الضابط الأساس.

ومما ينبغي التأكيد عليه بخصوص هذا (الضابط)، أنه عند التأكد من عدم ثبوت النص، فإن عمليه الإسقاط تلغى ولا يقام لها وزن.

ثَانياً: ترك الاستدلال باللوازم وغير الظاهر، والبعد عن الاجتهاد في ترتيب الأحداث الواردة في النصوص دون دليل، إذ الإسقاط من (مُلَح العلم)، مُتخلِّف عنه الثبوت والاطّراد والحكم والبناء عليه.

ومن الواجب: عدم الاعتماد في ترتيب الحوادث التي صحت فيها الأحاديث على تنبؤات الكهنة، وكتب الرافضة، والإسرائيليات؛ فالحوادث شيء، وترتيبها دون دليل بتسلسل معيَّن، شيءٌ آخر، لا بُدّ من التفرقة بينهما، وهذا ملحظ لم ينتبه له كثير من الخائضين، فضلًا عمن لهم مشاركة، ولا سيما في المقالات أو المقابلات عبر (الفضائيات).

ثَالِثاً: أن يبقى هذا الإسقاط في دائرة التوقّع المظنون، دون أن نتكلَّف إيجادها بإجراءات من عند أنفسنا؛ لأن الوقائع والأحداث أمور كونية قدرية واقعة لا محالة، ولم نخاطب باستخراجها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

رَابِعَاً: أن لا يؤثّر هذا الإسقاط، والترقّب الذي يترتب عليه، على أداء واجب الوقت، وتكاليف الشرع.

وهذا ـ مع الذي قبله ـ تحصيل حاصل، وثمرة حتميَّة لكون (الإسقاط) من (المُلَح) لا من (الصُّلْب)، ويتأكد (القيد الرابع) بحال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

خَامِسَاً: الذي يقوم بالإسقاط عالِم مشهود له، إذ الإسقاط أدقّ تفسيرٍ

وشرحٍ للنَّص، فهو حصرٌ لمعنىً في حادثة معيّنة، ولهذه الحادثة نظائر فيما مضى، وقد يتخلّف عنها وصف، أو ذكر زمان أو مكان، أو شخص له ذكر في النص؛ فالهجوم بمجرد المشابهة والتخيُّل دون التأنّي ليس من المنهج العلمي، ولا سيما أنّ الحوادث لا تنتهي!

وينبغي أنْ يراعي مَن يقوم بذلك: التزام التجرد والموضوعية في فهم النصوص؛ بمعنى: «يجب أنْ لا يخضع النص لأيّة مقررات سابقة، أو رواسب قديمة، أو مواقف ممهّدةٍ سلفًا، بل يجب أن ينطلق فهم هذا النص من النص نفسه، وينبغي أنْ يستمد أيُّ فهمٍ صلاحيتَه وسلامتَه من النظر الأمين فيه، وليس مقبولًا أنْ يكونَ فهمُ هذا النص أسيرَ المواقف والرواسب والمقررات السابقة القديمة؛ وذلك لأنّ الأفهامَ التي تنطلق في أساسها من مواقف موافقة أو مناوئة، من النادر أنْ يُوفَّق إلى الوصول إلى المراد الإلهي من نصّه، بل كثيرًا ما تتميز بالإسقاطات والتكلف، ولهذا فإنه لكي يسلم الاجتهاد في فهم النص الشرعي؛ فإنّ على المجتهد أنْ يلتزم بهذا الضابط المنهجي: التجرّد والموضوعيّة.

ومرادنا من (التجرد): هو تخلِّي المجتهد عن جميع مقرراته السابقة، ومواقفه المتعددة، وتوجهُه إلى النص الشرعي بعقلية نزيهة، تهدف إلى التوصل إلى المراد الإلهي، بغض النظر أن يكون ذلك المراد الذي سيتوصل إليه موافقًا لمقرراته السابقة أو مناوئًا لها.

وأمّا مرادنا بـ (الموضوعية): فهي تجرّد المجتهد مِن الذّاتية، ومِن التحيّز لآرائه السابقة، ومقرراته القديمة، وتميُّزه بالأمانة والاستقامة عند الاجتهاد في فهم نص من النصوص؛ بحيث يجعل التوصل إلى المراد الإلهي من نصّه هدفه ومرماه في اجتهاده.

وتكمن أهمية هذا الضابط المنهجي في كونه الضابط المظلوم ضمن ضوابط الاجتهاد في فهم النص المنهجية، إذ إنه كثيرًا ما يُغْفَل، ويُهْمَل ولا يُذكرُ إلا نادرًا، وبسبب إهماله شاع التفسير السياسيّ والمذهبيّ للنص الشرعي.

* * *

ٱلْمَلَاحِمُ وَٱلْفِتَنُ فِي بِلَادِ ٱلشَّامِ

هذه الملاحم نهايتها ـ كما أخبر النبي الأمين ﷺ بجزمٍ ويقين، لا بظنٍّ وتخمين ـ إنما هي للمسلمين، والكلام حولها كثير، ويحتاج إلى فهم وربط، والذي يتأمَّل الأحاديث الصحيحة الواردة في الملاحم والفتن تأملًا جيدًا، ويربطها مع بعضها بعضًا يجد أنَّ الله ـ عزّ وجلّ ـ سَيُعيدُ الخَيْرَ للمسلمين قبل هذه الملاحم، ولا يَبْعُدُ أن يكون لهم خليفة عام قبل المهدي؛ فقد ثبت من حديث عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: «**لن يجمع الله على هذه الأمّة سيفين، سيفًا منها، وسيفًا من عدوها**»[1]، وأمتنا تجتمع عندما يزول الخلاف بينها، ولا سيَّما عندما تستعد لمواجهة عدوها.

فبلاد الشام معقل المسلمين في الفتن، والله ـ عزّ وجل ـ يبعث منها موالي يؤيِّد بهم الدين؛ كما ثبت عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا وقعت الملاحم بعث الله من دمشق بعثًا من الموالي، أكرم العرب فرسانًا، وأجودهم سلاحًا؛ يؤيّد الله بهم الدين**»[2]. ويقول النبي ﷺ: «**فسطاط**[3] **المسلمين**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٠١)، وهو **صحيح**.

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم، **وحسَّن إسناده** شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٢٧٧٧).

(٣) أي: مجمع، والمراد: المكان الذي يجتمع فيه المسلمون، ويتميز صفهم من فسطاط =

بأرض يقال لها: الغوطة، فيها مدينة يقال لها: دمشق؛ خير منازل المسلمين يومئذ»[1].

إنّ الملاحم ـ بلا شك ـ لها مقدِّمات، تهجم على الناس دون ترقُّب، ولعل مقدِّماتها طمع الكفار بخيرات هذه البلاد[2]، ولا سيَّما أنه ثبت من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال رسول الله ﷺ: «**مُنعت[3] العراق درهمها وقفيزها، ومُنعت الشام مُدْيَها ودينارها، ومُنعت مصر إردبَّها ودينارها، وعُدتم[4] من حيث بدأتم، وعُدتم من حيث بدأتم، وعُدتم من حيث بدأتم**»[5]، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه»، والقفيز والـمُدْي والإردبّ: مكاييل معروفة معيَّنة في ذلك الزمان، وفي تسمية النبي ﷺ مكيال كل قومٍ باسمه المعروف عندهم؛ دليلٌ على أنه ﷺ كان يعرف كلام الناس، وإن بعدت أقطارهم، واختلفت عباراتهم.

والنَّاظر في كتب الشُّرَّاح يجد أنهم ـ على اختلاف أعصارهم وأمصارهم، وعلى تباعد الزمن بينهم ـ كلٌّ منهم يقول: «وقع هذا الحديث في زماننا»، فلو نظرنا عند الخطابي ـ مثلًا ـ في «المعالم»[6]، أو ابن حزم في «المحلّى»[7]، أو الحميدي في

= النفاق والكفر.

(١) قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) كما في حديث تداعي الأمم.

(٣) أي: ستمنع، بضميمة وقرينة: (وعدتم).

(٤) أي: عدتم غرباء كما بدأ الدين.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٩٦).

(٦) «معالم السنن» (٣/ ٣٥).

(٧) «المحلّى» (٥/ ١٧٠ و ٧/ ٢٥٤).

«الجمع بين الصحيحين»[1]، أو القاضي عِيَاض في «إكمال الـمُعْلِم»[2]، أو النووي في «المنهاج شرح صحيح مسلم»[3]، أو صدّيق حسن خان في «السراج الوهاج»[4]، كلهم يقولون: «وقع الحديث في زماننا»، مع تباعد هذه الأزمنة (!) وهذا الحديث يحتاج إلى تأنٍّ في إدراكه وفهمه. لذا؛ فإنّ الفقهاء قد استنبطوا منه فوائد كثيرة، والذي يهمنا منه ما يخص الملاحم، والذي أراه راجحًا ـ بعد جمع ما ورد في الباب ـ أنّ هذا المنع لم يقع بعد بقرائن قويّة:

ٱلْأَوَّل: منها ما ورد عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ موقوفًا ـ وهو في حكم الرفع ـ قال: «يوشك أهل العراق أن لا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم» قيل: من أين ذاك؟ قال: «مِن قِبَلِ العجم»، ثم قال: «يوشك أهل الشام أن لا يُجبى إليهم دينار ولا مُدْي» قيل: من أين ذاك؟ قال: «من قِبَلِ الروم»، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيًا**»، أو قال: «**يحثو المال حثوًا، ولا يعدُّه عدًّا**»[5]؛ فذكر المهدي بعد هذا الأمر.

وفي هذا إشارة إلى أنّ هذا المنع إنما يكون قبل المهدي، وهذا الطمع لا يبعد ـ عندي ـ أن يكون هو بدايات الملاحم المذكورة.

ومما ينبغي أن نلفت إليه الأنظار في كلام جابر: أنَّ الذي يمنع أهل العراق

---

(١) (٣/ ٢٩٥).

(٢) «الإكمال» (٧/ ٢٥٤ و٨/ ٤٣٤).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٨/ ٢٨).

(٤) «السراج الوهاج» (١١/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢٩١٤).

خيرات بلادهم إنما هم العجم[1]، بينما الذي يمنع أهل الشام خيرات بلادهم هم الروم[2].

وتعجبني في هذا الباب رواية عند الحاكم **بإسناد صحيح** فيها زيادة على ما ذُكر في الحديث الأول، قال: «**والذي نفسي بيده ليعودنَّ الأمر كما بدأ**» ـ ذكرها ثلاثًا ـ، ثم قال: «**ليعودنّ كلّ إيمان إلى المدينة كما بدأ منها، حتى يكون كلّ إيمان بالمدينة**»[3].

لذا وضع أبو عمرو الداني هذا الحديث تحت باب: (ما جاء في المهدي)، وكذا صنع القرطبي في «التذكرة»[4]؛ فوضعه تحت باب: (الخليفة الكائن في آخر الزمان المسمى بالمهدي، وعلامة خروجه)، جعل هذا المنع علامة على خروج المهدي، وكذا كلام صديق حسن خان في «السراج الوهاج»[5]، قال: «وهذا الحثو الذي يفعله هذا الخليفة يكون لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات مع سخاء نفسه»[6]، وطوَّل في تقرير أنَّ المهدي هو المعنيّ.

فهذه الملاحم تكون عند الطمع في خيرات العراق، وخيرات الشام، والباقي من الدنيا أقلُّ من الزائل، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جندًا للإسلام والمسلمين

---

(١) من العُجْمة، وإن كان عربيًّا وفي لسانه عجمة، ولا يحسن العربية؛ فهو أعجمي.

(٢) جنس من الناس معروف كالعرب والفرس والزنج، وهم الذين نسميهم: الإفرنج، وهم اليوم أهل أوروبا، وهم من ولد روم بن عيص بن إسحاق.

(٣) «المستدرك» (٤/ ٥٠١).

(٤) «التذكرة» (ص٥٥٨ ـ ٥٥٩).

(٥) «السراج الوهاج» (١١/ ٣٨١).

(٦) يعني: المهدي.

ـ على الحقّ واليقين ـ.

ومما ينبغي أن يذكر في هذا المقام ـ وهو مهم ـ حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره؛ فلا يأخذ منه شيئًا**»[1]. وهذا الانحسار ليس البترول؛ فهو مردود من وجوه عديدة.

وهذا الانحسار يكون قبل المهدي؛ بدلالة ما ثبت عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «الفتن أربع: فتنة السراء، وفتنة الضراء، وفتنة ذكر فيها معدن الذهب، وانحسار الفرات»، ثم قال: «ثم يخرج رجل من عترة النبي ﷺ»[2]؛ فهذا الانحسار ـ أيضًا ـ يكون قبل المهدي.

ويؤكد هذا: ما ثبت عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، قال: شُكي إلى عبد الله بن مسعود الفرات، فقالوا: نخاف أن ينفتق علينا[3]، فلو أرسلت من يسكّره[4]، فقال عبد الله: «يوشك أن تطلبوا في قراكم[5] هذه طستًا من ماء فلا تجدونه، ينزوي كل ماء إلى عنصره، فيكون بالشام بقية المؤمنين والماء»[6].

والشاهد قوله: «فيكون بالشام بقية المؤمنين»؛ فعند الانحسار يكون بقية

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٩٤) بسنده إلى علي ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) أي: يغرقنا.

(٤) أي: يسد فاه.

(٥) والصواب: (فراتكم هذا)، كما بيَّنتُه في دراسة مفردة عن العراق في أحاديث الفتن.

(٦) أخرجه عبد الرزاق والحاكم وابن عساكر، وصححه شيخنا في «الصحيحة» (٣٠٧٨).
والحديث وإن كان موقوفًا فهو في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال من قبيل الرأي كما هو ظاهر.

المؤمنين في الشام، وتبدأ الملاحم من هنا، فهذه كلها إرهاصات ومقدمات.

وهذا لا يعني أنَّ بلاد الشام لا يوجد فيها مصائب ولا فتن، لا؛ فالشام لا بدَّ أن يصيبها شيء كثير، سواء في السابق أو اللاحق، وفتنة (التتار) لم تبقِ مدينة من بلاد الشام إلا وقد أصابها منها شرّ عظيم فيها؛ فإنهم أسعروا الدنيا نارًا.

والكلام في هذا طويل وكثير، وهنالك نصوص عديدة وكثيرة فيها بيان وصول الشر إلى كل مكان في آخر الزمان، والفتن ستشتد، والسعيد من يجنبها، وييسّر له المقام في آخر الزمان في الشام. عن أبي أمامة قال ـ وهو موقوف وله حكم الرفع ـ: «**لا تقوم الساعة حتى يتحوّل خِيار أهل العراق إلى الشام، ويتحوَّل شرار أهل الشام إلى العراق**»[1]، قال أبو أمامة على إثره: قال ﷺ على إثره: «**عليكم بالشام**». وله شواهد كثيرة جدًّا؛ أجودها وأوضحها عن شرحبيل بن مسلم، عن أبيه قال: «بلغنا أنه لن تقوم الساعة حتى يخرج خيار أهل العراق إلى الشام، ويخرج شرار أهل الشام إلى العراق»[2]، وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: «ليأتينَّ على الناس زمان لا يبقى فيه مؤمن إلا كان بالشام»[3] والآثار والأحاديث تدلُّ على أنَّ تحوُّل المؤمنين في آخر الزمان سيكون إلى الشام، ولا سيّما عند اشتداد الفتن في أقطار الأرض، ولذا ثبت من حديث عبد الله بن حوالة: أنَّ النبي ﷺ قال: «**يا ابن حوالة! كيف تصنع في فتنة تثور في أقطار الأرض كأنها صَيَاصي**[4]

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٤٥)، وهو صحيح

(٢) أخرجه ابن عساكر (١/ ٣٠١٦) بسند جيد.

(٣) أخرجه عبدالرزاق (٢٠٧٧٨) بسند جيد.

(٤) أي: قرونها، وشبّه الفتنة بها لشدتها وصعوبة الأمر فيها.

بقر؟»، قال: قلت: أصنع ماذا يا رسول الله؟ فقال: «**عليك بالشام**»[1]، وعن مكحول، قال: «لَيَتمخَّرَنَّ الروم الشام أربعين صباحًا لا يمتنع عنها إلا دمشق وعمان»[2]، وفي رواية: «لا يمتنع منها إلا دمشق وأعالي البلقاء»[3]، وعن عبد الرحمن ابن سلمان، قال: «سيأتي ملكٌ من ملوك العجم يظهر على المدائن كلها إلا دمشق»[4]؛ فهو يَمْخَرُ المدائن كلها إلا دمشق.

وعليه، فمن الأحاديث التي فيها ذِكْرٌ للفتن والملاحم وبلاد الشام شيء كثير يفيدنا؛ مجمله: أنه يقع صلح بين المسلمين ـ والظاهر أنه يكون لهم كيان وإمام ـ وبين الروم، ونقاتل معهم عدوًّا آخر، ويرفع واحد من الروم الصليب ويثور رجل مسلم عليه فيقتله، ويكسر الصليب، وحينئذ يغدر الروم، وتبدأ الملحمة بيننا وبينهم. وفي هذا حديثٌ عن يُسَير بن جابر، قال: هاجت ريحٌ حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجّيرى[5] إلا: يا عبد الله بن مسعود! جاءت الساعة، قال: فقعد ابن مسعود وكان متكئًا، فقال: «إنَّ الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة»[6]، ثم قال ابن مسعود بيده هكذا، ونحَّاها نحو الشام، وقال: «عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام». وفي رواية: «عدوٌّ يجمعون لأهل

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣/ ٤٦٤).

(٢) أخرجه أبو داود في رواية اللؤلؤي، ومن طريقه ابن عساكر (١/ ٢٤٥) **بإسناد صحيح** إلى مكحول.

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (١٢٥٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٣٩) ومن طريقه ابن عساكر (١/ ٢٤٥)، **وصحّح إسناده مقطوعًا** على عبد الرحمن ـ هذا ـ شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح أبي داود» (٣٨٧٧).

(٥) أي: ليس له عادة.

(٦) أخرجه مسلم (٢٨٩٩).

الشام»، قلت: الروم تعني؟ قال: «نعم؛ ويكون عند ذاك القتال ردة شديدة فيشترط المسلمون شُرْطةً للموت لا ترجع إلَّا غالبة، فيقتتلون ثلاثة أيام حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء؛ كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرْطة[1]، ثم يشترط المسلمون شُرْطةً للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرْطة، ثم يشترط المسلمون شُرْطةً للموت، لا ترجع إلا غالبة». وفي المرة الثالثة ـ في هذه المقتلة أو الملحمة ـ يكون فيها المسلمون في دمشق، ويكون الروم فيها بدابِق أو بالأعماق[2]، ويكونون في هذا المكان بحكم الهدنة الأولى التي كانت بينهم، ثم في المرة الثالثة قال النبي ﷺ: «**لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء؛ كلٌّ غير غالب**»، حتى إذا جاءت المرة الرابعة يأتيهم مَدَدٌ من المدينة، من خيار أهل الأرض؛ كما قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة[3]، ثمّ أخبر النبي ﷺ في آخر هذا الحديث: **أنَّ الشيطان يأتيهم ويقول: «إنّ المسيح قد خلفكم في أهليكم»**.

هذا مجمل ما ورد من الملاحم، وينبغي أن ننوّه إلى أنه تزداد شهوة الكلام عند حلول الفتن، وتظهر جرأة كثيرة من الناس وقتها، فيحلو لهم آنذاك استرجاع أحاديث الفتن، وتقليب صفحاتها، ويروون ذلك، ويزداد في اجتماعهم في المجالس! فالواجب التنبيه والتحذير من الفتن، والتأنِّي في تطبيق أحاديثها على الواقع الحالي أو الإسقاط؛ فالإسقاط ـ هكذا ـ ليست له قواعد دقيقة، وهو ليس من صلب العلم، وإنما هو من مُلَحه؛ فتنبَّهوا.

* * *

(١) تقع مقتلة عظيمة في صفوف المسلمين.

(٢) وهما قريتان بالقرب من حلب.

مَسألَة مُهِمَّة

إذا وافق الحَدَثُ خبرًا لم يثبت عند أهل الصنعة الحديثية، فهل يُصَحَّحُ الخبر بالموافقة؟

الجَوَابُ: الصوابُ لا، كما لو وافق الخبر الاكتشاف العلمي، ذلك لأنّ مبحثنا ليس البحث في الكلام الذي بين أيدينا هل هو حق أو باطل، وإنما مبحثنا هل هذا الكلام قاله النبي ﷺ أم لم يقله؟ ولو كان مبحثنا الكلام لذاته لكان هنالك مدعاة للقبول.

فمبحثنا إذن في موافقة الخبر للأحداث المستقبلية والاكتشافات العلمية أو ما شابه، لأننا نريد أن نضع هذا الخبر في مقام الحُجِّيَّة، فهل يصبح بالموافقة حجّة؟ وهل يصبح وحيًا؟ فالجواب: لا.

وعلى كلّ حالٍ، فمع كلّ ما هو مطلوبٌ من العلم والعمل والانضباط والمجاهدة، فالنجاة من الفتنة تحتاج قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك إلى الدعاء، كما كان يقول عمر في الحديث الطويل: «رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولًا، نعوذ بالله من سوء الفتن»[1].

وكان من دعائه ﷺ: «**وأعوذ بك من ضرّاء مضرّة، ومن فتنة مضلّة، اللهمَّ**

(١) رواه البخاري (٧٠٨٩).

زَيِّنَّا بزِينة الإيمان، واجعلنا هدة مهديِّين»[1].

وثبت عند أحمد وغيره أنه كان من دعائه ﷺ: «**اللهمّ إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنةً في قومٍ فتوفّني غيرَ مفتون**»[2].

وكان من دعائه ﷺ: «**يا مقلّب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»[3].

اللهمَّ فرِّغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكَفَّلت لي به.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

❐ ❐ ❐

---

(١) رواه أحمد (١٨٣٥١)، والحديث صحيح.

(٢) رواه أحمد (٢٢١٦٢)، والحديث صحيح.

(٣) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وهو صحيح.

أَسئِلَة وَأَجوِبَة
فِي فِتْنَة القِتَال فِي سُوريا[1]

كلمة حول أوضاع الأمة، وأحداث سوريا، والموقف منها[2]:

الذي يعيش في بلاد الشَّام خاصَّة يجد أثر الصوفية العميق في الأمـة، وأن الإنسان كلما قرأ لشيخ الإسلام بخاصة ـ وهو شامي ـ استطاع أن يتخلَّص مـن عوالقِ ورواسب التصوُّفِ والصُّوفية وخرافاتهم، ودون ذلك يعسر على الإنسان أن يتخلص.

وأزيد على هذا فأقول: الذي لم يقرأ ويسمع ويعايش ويفهم هـذه الـدَّعوة المُباركة من كبرائها، وعلى رأسهم ـ في هذا المضمار خاصة ـ شيخُنا الإمامُ الألباني ـ رحمه الله ـ؛ فهو لا يعرفُ الدَّعوة السَّلفيَّة المعرفةَ الصحيحة.

اجتمعتُ مع بعض الوُعَّاظ المعروفين، يَسأل أسئلة عجيبة في دقائق قليلة، يقول: أما ترى أن الشيخَ ابن عثيمين لـمَّا خرجَ عن المذهبِ الحنبلي اضطرب؟

---

(١) كانت في أوقات تهفو فيه النفوس للعزة، وتدق طبول الإعلام، وترفع كتائب المجاهدين ألوية النصر، وكـان كاتـب السطور يصرخ ولكـن في وادٍ سحيق، وكيلت لـه الشتائم والويلات، وأشفق عليه بعض طلبته، وكانوا يحثُّونه على السكوت!

(٢) قيلت على إثر مؤتمر صحفي لمجموعة من الدعاة، عُقد في مصر في عهد الرئيس مرسي، وقرروا فيه وجوب الجهاد في سوريا! وأنَّ على الشباب النفير العام!

قلتُ: لولا خروجُ الشيخ ابن عثيمين عن المذهب ما وُضع له هذا القبول!

وَضع الله القبول للشيخ ابن عثيمين ـ رحمهُ الله ـ لأنه كان متجردًا للدليل، كان طَلَّابًا للحق.

انظر إلى هذه الصورة، وتلك الصورة:

يقول: أرأيت رجلاً ألَّف ومسح كتابَه وغَسَل كتابه ـ كما كان يفعل السلف ـ؟

قلت: نعم، الشيخ الألباني، تعب فترة طويلة في حياته وهو يُخرِّج «المعجم الصغير» للطبراني، وكَتب عليه: (لا آذن أن يطبع)، هذا شبيه بِغسل السلف كتبهم.

كأنه يقول: أن من اشتغل بالتأليف والتحقيق ـ أمثال شيخنا الألباني ـ، هؤلاء ضلوا الطريق وخرجوا عن مذهب السلف!

ولذا أقول: الذي لم يدمنْ ولم يُلازم مشايخ الدَّعوة السَّلفيَّة الكبار ليس مأذونًا له أن يتكلَّم باسم الدَّعوة. فالدَّعوة السَّلفيَّة تؤخذ مِن أبنائها الذين تتلمذُوا على المشايخ الكبار، وأمَّا الذين نبتوا نباتًا بريًّا، ولم يُعرف لهم صلة بالمشايخ الكبار، هؤلاء يتكلمون من رؤوسهم، ولا يُناط بالدعوة تصريحات هؤلاء، هم إخواننا، ونفع الله بهم، وجزاهم الله خيرًا، إن أصابوا فجزاهم الله خيرا، وإن أخطؤوا فهم يتحملون خطأهم.

الدَّعوة السَّلفيَّة أكبرُ من هؤلاء، والإعلام اليوم لما يتكلم يقول: سلفيون مثل فلان وفلان، تصريحات هؤلاء أصبحت ملتصقة بالدَّعوة السَّلفيَّة، والأمر ليس كذلك!

من أراد أن يحاكم الدَّعوة السَّلفيَّة فشيوخ الدَّعوة السَّلفيَّة معروفون،

والتلاميذ المُلازمون لهؤلاء الشيوخ معروفون، ومَن يسير على منهج هؤلاء معروفون، فالدَّعوة السَّلفيَّة تؤخذ من هؤلاء، وما عدا ذلك أقوال أفراد.

لا يمكن لسلفي أن يقول: أنا أقوم بالتغيير بأن أعتصم أنا وتلاميذي وزوجتي وأهلي وبناتي بميدان التحرير!!

والله الذي لا إله إلا هو! لو أن المسلمين ـ من لدن آدم إلى قيام الساعة ـ اجتمعوا في ميدان التَّحرير لم يُغيِّروا التَّغيير الذي يحبُّه الله، فنحن لا نريد أي تغيير، نحن نريد تغييرًا شرعيًّا، وهذا التَّغيير الشَّرعي منوط بقواعد مذكورة في الكتاب والسُّنَّة. هذه كلمة لا بُد أن نتذكرها وأن نُرددَها حتى نخرج مما نحن فيه، أو حتى نخففَ مِن وطأة ما نحن فيه.

يقولون في مصر: على المرأة أن تترك رضيعها، وأن لا تستأذن أباها، وأن تخرج للجهاد في سورية!!

لماذا لا تخرج أنت ـ يا من تقول بهذا ـ؟ تقول: أنا لا أستطيع! أنا أدلُّك: اذهب إلى تركيا فتدخل تحت قوى دول عالميَّة إلى سورية، هناك توجه عالمي لإدخال الشباب للقتال والالتحاق بالجيش الحر، فقولك: لا تستطيع؛ أنت كاذب! والذي ترضاه لغيرك؛ افعله أنت!

لا نريد أن نكون كذاك الرجل الذي قال لتلاميذه: الجهاد في العراق واجب... سقطت بغداد... يجب أن نحارب الأمريكان! فكان ولده أول من فزع، فلما علم أن ولده ذهب إلى بغداد؛ اتصل بوزير الداخلية قال: (دخيلك! من أجل ربنا؛ رجِّع ابني)!

لماذا يرجع ابنك؟! وأنت تقرر أن الجهاد واجب! فالأصل أن تدفع ولدك!

ولذا فإنَّ هذه مسائل ما ينبغي أن نتكلَّم فيها إلا ديانة، ولا يجوزُ أن نتكلم فيها بظنٍّ وتخمين، هذه دماء، هذه مسائل ليست سهلة، الأحداث التي تجري لها صلة بأحداث الدُّنيا إلى قيام الساعة، الأمَّة على مفترق طريق خطير وخطير للغاية؛ فالواجب علينا أن نحفظ رأسَ مالِنا.

الذي أحبُّه لإخواننا مِن طلبة العِلم ـ ممَّن يُقيم في الشَّام ـ أن يَخرج من الشَّام، وخروجُه من الشَّام حفظ رأس المال، لا نُريد أن نقامر وأن نغامر بفضلاء إخواننا، وهؤلاء الشَّباب المساكين يذهبون ضحيَّة، ثم لا ندري ماذا سيحصل بعد أن يتغيَّر النظام في الشَّام؟

ما الذي يمنع أن يُقال: أنَّ الشَّام فُرِّغت سابقًا من أهل السُّنة، والآن عليها مؤامرة أن تُفرغ ـ أيضًا ـ من أهل السنة وأن يُصفَّى الصَّادقون منهم؟

وما الذي يمنع أن يذهبَ رجل من النظام ثم يعود رجل آخر من نفس النظام كما كان يقول شيخُنا ـ رحمهُ الله ـ: (تغيير شكل من الأجل الأكل)، يتغيَّر الشكل فقط، ويبقى التشيُّع قائمًا، ويتغيَّر نظام بعبارات معسولة!

لا يجوز للمسلم أن يجاهدَ إلا تحت راية ظاهرة، الرَّاية العُميَّة حرام شرعًا أن نقاتل تحتها، وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: «**مَن قاتل تحت راية عُمِّيَّة فمات؛ فمِيتتُه جاهليَّة**»[1]، إذا لم تكن الراية واضحة، راية ترفع شرع الله، راية لأجل إعلاءِ كلمة الله، لا نريد أن نقاتلَ مِن أجل (أن نفش غلنا) ـ كما يقولون ـ، القتال اليوم (فش غل)!

لا نحب الذي يجري في الشَّام، ولست مع النظام الباطني ـ معاذ الله أن تُتخذ كلماتي هذه ذريعة لبقاء نظام متسلط يقتل شعبَه ـ، لا أريد هذا؛ لكن أريد

---

(١) رواه مسلم (٤٨٩٢).

أن نوَسع مداركنا؛ مَن يقول بوجوب الجهاد دون إذن الوالي، وبدون إذن الزوج، والمرأة المُرضع ترمي رضيعَها وتذهب تقاتل من مصر، أين تذهب؟

هل هذه فتوى صحيحة؟!

هل هذه فتوى يمكن أن يُقدِم عليها راسخ في العلم؟!

هل هذه الفتوى يمكن أن يقدم عليها رجل تربى في أحضان العلماء؟!!

هذه فتوى الإعلاميين، فتوى الصحفيِّين، ليست هذه فتوى الرَّبانيين الراسخين في العلم!

وهذه ـ للأسف ـ تُحسب على الدَّعوة السَّلفيَّة! هذه كلمة أحببت أن أبينَها لا لشيء ـ واللهِ ـ إلا لتبرأ ذمتي، وإلا ليفهم إخواني حقيقة بعض ما يجري في بلاد المسلمين.

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

ـ سُؤَال: ماذا تنصح للذين يريدون الذهاب إلى سورية للقتال وقد ذهب بعضهم؟

ـ الجَوَابُ: إلزم بلادك، افهم دينَك، علِّم الناسَ دينَك.

أنت والمجاهِدون جميعًا في سورية لن يقرِّروا مستقبَل سورية، مستقبل سورية ليس بيد المجاهدين. هل هذه القاعدة صحيحة أم خطأ؟

نبني عليها: إذا كان مستقبل سورية بيد المجاهِدين؛ فالجهاد في سورية جهاد شرعي بشروطِه المعتادة.

وإذا كان المستقبل مصنوع وليس بيد المجاهدين؛ لماذا تذهب، فتصبح فردًا من مؤامرة على الأمة؟! هل مستقبَل سورية بيد من يُقاتِل؟

تقاتِل والنتائج ليس بمعروفة؟! غيرُك يجني الثمرة؛ هل تَقبَل هذا في الدنيا؟!

هل تَقبَل أن تعمل عملًا في الدنيا ويأخذ أجرَه غيرك؟!

لا يوجد عاقل يَقبَل هذا!

سورية ليس مستقبلُها بيد السوريِّين جميعًا، ولو اجتمعوا على قلبِ رجل واحد.

والذي أراه أن موضوع سورية موضوع خطير، وسيؤثر في تاريخ البشرية، ولا تظنوا أني أبالِغ؛ لأن الذي يجري في سورية ترْقبُه جميعُ الدول الكبرى!

حتى الصين ترقب الذي يجري في سورية؛ لأن الصين لم يعوِّدنا على موضوع السياسات والقتال!

كل الدول ترقب الذي يجري في سورية. الذي يجري في سورية سيكون مُرجِّحًا للتشيُّع أو عدمه.

والذي نحب أن يقعَ في سورية اليوم أن يسقطَ النظام القائم ولا يبقى، وأسأل الله أن يعجِّل بزواله، فقد ذاق أهل السنةِ منه الأمرَّين.

لكن هذا شيء، وموضوع أن يقومَ دين في سورية ـ في الواقع الموجود والمعطَيات الموجودة ـ شيء آخر.

الذي يجري في سورية ـ في الحقيقة ـ خطير وخطير جدًّا؛ يعني: الذي يجري في سورية مثل بيضة الديك ترجِّح حسم الصراع في حقِّ مَن؟

وهنالك تردد وتلكُّؤ، والدماء التي تسيل في سورية؛ لو سأل عاقل فقال: من يتحمَّلها؟ شعبٌ الدولةُ تقصفه من السماء ومن البر من الأرض.

الدول الكبرى بإمكانهم أن يبتُّوا الأمر وأن يقطعوا الأمر، فلماذا لم يُقطع الأمر؟ لماذا لا يُتعجل في الأمر؟ العاقل يتأمل كثيرًا!

هل الدول عاجزة عن حسم الأمر في سورية؟ ليسوا بعاجِزين، لكن مؤامرة كبيرة، متشابكة، بعيدة الآماد، لها دهاليز مظلمة، يصفَّى فيها أقوام، ويُراد بها دماء... إلخ.

* * *

ـ سُؤال: هل ما يحصل في سورية جهاد فرض عين؟

ـ الجَوَابُ: الذي يقول فرض عين؛ يعني: المخبز الذي يخبز الخبز حرام أن يبقى، يجب أن نغلق المخبز إذا كان فرض عين علينا! وحرام على المعلِّم أن يذهب إلى المدرسة!

هل يوجد عاقل يقول هذا الكلام؟!

والله الذي لا إله إلا هو! تكلمت معي امرأة على الجوال تقول: أنا مقتنعة أن الجهاد فرض عين، والمشايخ يقولون: المرأة تخرج دون إذن زوجها، وغير المتزوجة دون إذن أبيها، وعندي رضيع أريدُ أن أتركه لأبيه وأذهب أجاهد...! هل هذا جهاد!!

والذي نفسي بيده! أن بعض إخواننا اللبنانيين يقول: أخذت أختي عمرها ١٧ سنة وأنا في العشرينات إلى الخطوط المتقدِّمة لمحاربة الجيش الأمريكي لما احتل العراق، فضباط العراق قالوا: أهلًا وسهلًا، فقدموني إلى الخطوط المتقدِّمة وأبقوا أختي بينهم ومعهم!

هل هذا جهاد؟!!

هل يقول العقلاء بأن هذا جهاد؟!

أي جهادٍ هذا؟!

لما سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ عن الجهاد في سبيل الله، ماذا قال له؟ قال: «**من قاتل لتكونَ كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله**»[1].

هل الذي يجري في سورية نتيجته: «**كلمة الله هي العليا**»؟

هكذا تعتقدون؟

والله! لو كنتُ أعتقد هذا؛ لخرجت الآن إلى سورية!

دول كبرى تتصارع، الدول التي فقدتْ قوَّتَها سابقًا كروسيا تتصارع على سورية.

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٤).

لن يقيم شأن سورية ومستقبل سورية المقاتلون الذين يحملون السلاح، وأسأل الله أن ينصر الموَحِّدين، وأسأل الله أن يحفظهم؛ فهم من جلدتنا، لكن لن يُمكَّنوا من فعل ما يريدون! هل الذي يرسم مستقبل سورية المقاتلون؟

لا والله!

ماذا نفعل؟

والله! حالُنا كحال المريض الذي يتألَّم من كل مكان في بدنه، وذهب إلى الطبيب، فقال له: ماذا يؤلمك؟ قال: والله يا طبيب! كل شيء يؤلمني، والله محتار! كل شيء يؤلمني، كيفما قلبتُ الأمر أجد ألـمًا، لا أدري أين المشكلة!

فالمشكلة أن غيرَنا يستخدم حماسَنا ويستخدم دينَنا ذريعة ليحقق مطاياه!

ألا ينبغي أن نستفيد من أفغانستان؟!

أما يكفينا سذاجة؟!

مليارات تُجمع لسورية، لو وزِّعت على أفراد السوريين لكان لكل واحد منهم كذا مليون!

موضوع سورية موضوع عميق، وموضوع بعيد، وموضوع لن ينتهي بيوم ولا يومين ولا سنة ولا سنتين، صراع عميق وبعيد، فسورية تحتاج إلى تقسيم المنطقة، تقسيم جديد، وأمور معقدة للغاية.

الناس كلها ـ للأسف ـ لا تتهم عقولها!

أكثر الناس عقلًا من يتهم عقله!

لا يغرك الكلام؛ أغلب الناس ـ إلا من رحم الله ـ قتلى أو صرعى معركة الإعلام!

أنا لا أثبِّط، وإنما أريد أن تكونَ طريقة تفكيرنا واقعية صحيحة، تنظر إلى مآلات الأفعال.

للأسف الشديد نقول: لما تحتل أمريكا العراق؛ فإن الشباب المسلم يستطيع أن يربي لحيته، ويستطيع أن يدرِّس ويحضر الدروس أكثر مما لو كان المسؤول عنها مسلم عربي!

للأسف الكبير نقول: كتُبنا مُنعت من سورية؛ ففي أوائل الثورة قبل بداية الحرب التقيتُ مع مجموعة من إخواننا من حمص، قالوا: أُخذنا لأنهم وجدوا كتبكم عندنا!

أي نظام يخاف من كتاب؟!

السُّني ممنوع أن يتكلم بكلمة في الشام!

وللأسف الكبير أننا نفرح بأن تحتل أمريكا سورية أو تحتل أوروبا سورية، ويمكن للشباب أن يقيموا الدين في سورية تحت الاحتلال الأمريكي أو الاحتلال الأوروبي أكثر مما لو كانوا تحت حاكم من...!!!

مناقضات غريبة عجيبة، تناقضات في الأمة من أعجب ما يمكن!

ولما تبدأ توازن بين مصالح ومفاسد تكاد تنقلب عندك الأمور، تكاد تنقلب الموازين! وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

ـ سُؤال: نرجو منكم توجيه نصيحة في كيفية التعامل مع ما يجري في بلاد المسلمين من أحداث؛ حيث إن كثيرًا من الشباب عندنا قد ذهبوا إلى سورية للقتال، وبعضهم أطباء لغرض المساعدة في معالجة المرضى.

ـ الجَوَابُ: الذي يجري في بلاد المسلمين ـ كما قلتُ لكم ـ مؤلم ومحزن. الذي يجري في سورية تحطيم وتدمير لهذا البلد الكبير، هذا البلد العظيم، نالوا من العرب، والنبي ﷺ أخبرنا أنه: «**لا تقوم الساعة حتى يكون العرب أقل الناس**»، نالوا من العرب أشرف وأحسن ما عندهم، وأقوى وأكثر ما عندهم من بلاد، لو استثنيتَ من بلاد العرب مصر والعراق والشام ماذا يبقى من بلادهم؟ الأمور عندهم مدروسة.

الذي يجري في الشام من قتال الشباب ـ أسأل الله أن يتقبَّلهم ـ هو من اجتهادهم، وأرجو الله أن يأجرهم، ولو استنصحونا؛ لقلنا لهم: أن الأثرَ المترتب على قتالكم لن يُقيم دين الله!

هل يمكن لعاقل أن يفكر ـ بعد أن تهدأ الأمور في الشام ـ: أن يُقام دين الله ـ عز وجل ـ؟

هل المقاتلون في سورية يرسمون مستقبل سورية؟

البلاد الكبرى ترصد ماذا يجري في سورية، صراع قوى كبيرة ودول كبيرة كإيران والصين وروسيا مع المحور القائم أمريكا وأوروبا، صراع تنعكس آثارُه، والكل يرقب على سورية.

فالذي يجري ليس صراع مجاهدين أو جيش مع دولة فقط! ليس الأمر كذلك.

فسواء قاتَلَ الشباب المسلم أو لم يُقاتل؛ فإن النتائج مرسومة!

أنا أدعو إخواني طلبة العلم ولا سيَّما إخواننا السوريين أن يحفظوا دماءهم، وأن يبتعدوا عما يجري، لعل الله أن ينفع بهم فيدخلون سورية ويؤمَّن

لهم أن يقوموا في بيوت الله فيُعلِّمون ويُدرِّسون.

لا نريد سورية أن تخلوَ مِن هذا الصنف من الناس، ولا نريد لهذا الصنف أن يقامِر وأن يغامِر بنفسِه، ولا يجوز لأحد أن يذهب لقتال إلا بعد أن تطمئنَّ نفسُه إلى أن هذا القتال في سبيل الله، وأن الراية التي يقاتِل تحتها راية ترفع دينَ الله، وأن مآل هذا العمل يخدم الإسلام والمسلمين، فمن غلب على ظنه هذه الأمور؛ فأرجو الله أن يتقبَّله، والواجب على كل من يذهب أن يستفتيَ أهل العلم، وأن يسمعَ رأيهم، وليس المطلوب منا كلما تحمَّسنا انطلقنا وتعجَّلنا ثم ندمنا!

الشباب الذين ذهبوا للعراق ثم رجعوا حدَّثونا بالأعاجيب عمَّا كان يجري في العراق، وأن الجيش الذي كانوا يقاتلون معه كان متآمرًا عليهم، بل أن بعضهم قد قتل بيده بعض الشباب الصادقين!

لا نريد أن نعيد أحداث أفغانستان، وأن يذهب الشابُّ ليجاهد ويرفع الظلم عن إخوانه فيَفسُد فِكرُه وفهمُه هناك؛ فيكفِّر أباه ويكفِّر أخاه! فالشباب الذين ذهبوا إلى أفغانستان ليقاتلوا؛ رجعوا يُكفِّروننا ويكفرون مشايخنا.

والذي نفسي بيده! أني سمعتُ أحدهم يقول: أذهب لمكة المكرمة فأصلي الصلوات الخمس منفردًا؛ لأني إن صلَّيتُ جماعة فالإمام الذي يؤم بي في مكة كافر!!

من أين جاءه هذا الفكر؟! من أفغانستان!

ماذا استفدنا؟ ذهب ليقاتِل؛ فرجع يكفِّر أئمة المسلمين!! وقلتُ له هذا الكلام بعد أن دخل يوم الجمعة ليصلي وحده: يا فلان! لماذا لم تصلِّ معنا؟

قال: أنتم كفار! لايوجد صلاة جمعة الآن!!

فلا نريد أن تتكرر هذه الأحداث.

فموضوع الجهاد أمر خطير، موضوع الجهاد عمَلُ أمَّة، موضوع الجهاد وراءه إمام، ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«الإمام جُنَّة يُقاتَل مِن ورائه»**[1].

ليس الجهاد أن تنتقل من بلد إلى بلد ومراهقة وعجلة وأن تحمل السلاح وتقاتل! ليس هذا هو الجهاد! الجهاد يحتاج إلى أمان لهذه الجيوش، وكيف تصل، وكيف تكون هناك خطط حربية، وهذا لا يكون إلا من وراء وجود قادة للجهاد، ووجود أئمة للجهاد.

فالذي يجري اليوم ـ أراه ـ مصيَدة للشباب الصادق كي يُتخلص منه، وهؤلاء الشباب مساكين مُتحمِّسين لا يعلَمون ماذا يُراد بهم!

والإعلام ـ قاتل الله الفاسد منه ـ بيَد اليهود، والإعلام يُثوِّر الناس، والناس ـ إلا من رحم ربي ـ قتلى أو جرحى لمعركة الإعلام وهم لا يشعرون! والله المستعان.

* * *

ـ سُؤَال: هنالك بعض الشباب من الأردن ذهبوا للجهاد في سوريا؛ فما حكم ذلك؟

ـ الجَوَابُ: أنا لا أحكم على الأشخاص؛ فمن ذهب مجتهدًا، ومن ذهب ولم يجد أمامه إلا مفتيًا فسأله فشجَّعه فذهب فمات؛ أرجو الله أن يتقبله.

---

(١) رواه مسلم (١٨٤١).

ومن ذهب مجتهدًا ظانًّا أنه يقيم دين الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه يرفع الظلم عن إخوانه وأنه ينصر دين الله ـ عز وجل ـ؛ فأرجو الله في علاه أن يجعله من المقبولين عنده. أما أنا فلا أنصح أحدًا أن يذهب، ولا أنصح إلا من أن يراد أن يُعلِّم.

وليس مآل سوريا للمجاهدين، فلا أحب أن يكون دافع الثمن جهة، والذي يكسب الثمرة جهة أخرى، لو كان مآل سوريا بيَد المجاهدين لوجب على المسلمين الجهاد، والواجب على الجيوش العربية والجيوش الإسلامية أن تتدخل قبل أن يتدخل العدو الأجنبي.

الخوف مما يجري في سوريا أن يكون تمهيدًا بهذا الأمد البعيد لأن يأتي الجيش الأجنبي فيحتل سوريا، فيحصل في سوريا كما حصل في العراق، ثم يندم أهل السنة، فإنهم قدَّموا في العراق كثيرًا ولكنهم لم يكسبوا شيئًا.

ولو أن المجاهدين ـ الذين نحسبهم على الله ـ الذين ماتوا في العراق يعلمون أن هذا المآل الذي ستؤول إليه العراق؛ ما ذهبوا وما قتلوا.

أنا أعجب من المليارات التي تجمع لسوريا أين تذهب؟ لو وزِّعت على عدد الشعب السوري لكان للواحد منهم عشرات الملايين.

أين هي هذه المليارات، ولماذا تجمع؟! ينبغي أن ننظر للأمور بأناة وأن نفكر بصورة صحيحة وعميقة، وأن نعلم أن الجهاد لرفع راية لا إله إلا الله، وأما القتال الذي تكون ثمرته ليست رفع راية لا إله إلا الله؛ فليس جهادًا، والله يحاسب كل عبد على نيَّته.

* * *

ـ سُؤال: ما هي شروط الجهاد الصحيح؟

ـ الجَوَابُ: الجهاد الشرعي له شروط:

ٱلشَّرط ٱلأَوَّل: إعداد العُدة؛ لقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، وفي حديث عقبه بن عامر في «صحيح مسلم» قال ﷺ: «**ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»[1]، الرمي هو أهم شيء في القتال، وهذا القتال كله قائم على الرمي؛ سواء الرمي من السماء، والرمي على الأعداء من خلال المسافات.

ٱلشَّرط ٱلثَّانِي: القتال تحت راية شرعية ترفع شرع الله.

فكل قتال إن تيقَّنت أنه ليس تحت راية الشرع فهو ليس جهادًا في سبيل الله، ودليل ذلك ما قاله النبي ﷺ: «**من قاتل تحت رايه عُمية فمات فميتته جاهلية**»[2]. ومعنى (الراية العمِّية): أنهم قد يقيمون الدين وقد لا يقيمون الدين.

ٱلشَّرط ٱلثَّالث: القتال يحتاج إلى إذن ولي الأمر.

الجهاد في سبيل الله ينبغي أن يكون قائمًا على تخطيط، واليوم هناك كليات حربية، وعلم التخطيط العسكري علم قائم بذاته، والدليل على هذا ما ثبت في «الصحيح» من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: «**الإمام جُنَّة**[3] **يُقاتَل مِن ورائه**»، لا يجوز لك أن تقاتل إلا بإذنه، وأما كل مجموعة يقومون ويحملون السلاح، ولا يكون لهم إمداد بالطعام والشراب، من غير تخطيط عسكري، وتكتيك حربي، وخطط شاملة محكمة، تأذن بالوصول إلى الغاية،

---

(١) رواه مسلم (١٩١٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ١١٦).

(٣) أي: وقاية.

وإنما العمل ـ فقط ـ على رمي هؤلاء الشباب في أتون المعركة بالحماسات؛ فهذا ليس بجهاد، بل يجب حفظ الشباب عنه.

والواجب على المفتين بعامة، وعلى السلفيين بخاصة، ممن أفتى بوجوب الجهاد؛ التوبة إلى الله ـ عز وجل ـ والتصريح برجوعه عن فتواه، حتى لا تغتر الأجيال القادمة بكلامهم، وإلا لن يسلموا من الأوزار بعد مماتهم، والله الواقي والعاصم.

* * *

ـ سُؤال: هل الجهاد مسأله فقهية أم منهجية؟

ـ الجَوَابُ: الجهاد باب يحفظ الأمة؛ مثل الذي يملك مستودعًا، لا يضع بابًا للمستودع إلا إذا كان فيه شيء نفيس، واذا لم يوجد فيه شيء نفيس لا حاجة لوضع الباب، الجهاد شيك يحصِّن الأمة المسلمة من العدو الخارجي لتبقى قائمة، وأما مع وجود الثغرات فينا والمصائب والمستودع خرِب، مليئ بالعناكب والصراصير فليس بحاجة إلى باب!

من الذي أوصد باب الجهاد؟ من عطَّل باب الجهاد؟

والله! غفلتنا ومعاصينا وعدم تقوانا لربنا وعدم وجود الأولياء والصالحين فينا.

يقول ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: «الجهاد باب لا يفتحه الله إلا إذا وجد في الأمه أولياء له، فيفتح هذا الباب حتى يأخذ أولياؤه إليه».

تأمل معي: أنت عندما تكون بالمعركه ماذا تريد؟

تريد من خلفك من إخوانك أن يعيشوا سعداء، وأن يعيشوا أقوياء، وأن يعيشوا بعيدين عن الذل، لذلك المجتمع المجاهد الذي يقدِّم الشهداء يكون بين

أفراده محبة وألفة، وأنت مستعد لأن تموت حتى ينعم غيرك بحياة فيها سعادة، أما مجتمع متمزق، أفراده لا يحب بعضهم بعضًا؛ من أين لهؤلاء أن يفتحوا باب الجهاد؟

* * *

ـ سُؤال: عندما ننصح إخواننا في الشام نجد الرد منهم كما يلي:

نحن نريد كلامًا ينبع من فقه الواقع الذي نحن فيه، فأكثر من يتكلم من العلماء السلفيين هم من خارج سوريا، بعيدون عن الواقع الذي نحن فيه؟

ـ الجَوَابُ: فقه الواقع طاغوت وصنم، الحركيون والحزبيون نفخوا فيه وجعلهم يقولون: ينبغي أن نعلم الشرك الذي في القصور لا الذي في القبور، وميَّعوا الحرص على التوحيد، وزهَّدوا الناس في الالتفاف حول العلماء، وأشغلوا الشباب بما لا طاقة لهم به، على وجه فيه حماسات بل فيه حماقات، فقه الواقع العدل الذي ذُكر في السؤال لا يلزمني أن أعطيه حكمًا شرعيًّا إلا أن نفقه، ولسنا مطالبين من فقه الواقع بأكثر من ذلك، وتستغربون لو قلت لكم أنَّ الكلام الذي أقوله لكم هو كلام ابن القيم في «إعلام الموقعين»؛ فقد خصَّ فقه الواقع بكلمة، وذكر أن فقه الواقع المطلوب حفظه وفهمه من قبل الناس، والحادثة التي إن أردت أن تتكلم فيها فالواجب عليك أن تفهمها حتى إن نزعت بحق من الشرع أن تعطيها وتنزِّلها منزلتها، وتُحسِن إسقاط النص عليها، وأكثر الناس جهلًا بالواقع هم أصحاب فقه الواقع، تفقَّد تجد، جرِّب تجد.

تأمَّل صاحب عقل، اسمع إليه يردد: فقه الواقع... فقه الواقع! وعاشوا مع حدث والحدث انتهى، وتكَّشفت الحقائق، وافحص حدث وحدثين وثلاثة

وأربعة وخمسة وستة، فالسبر التام دليلٌ صحيح عند جميع عقلاء الدنيا، افحصوا كلام الذين يقولون: فقه واقع... فقه واقع، كم مرة أصابوا في تحرير فقه الواقع، وما هي الثمار التي جنَوها، وماذا ترتب على تأجيج الشباب... إلخ.

يجلس عشرون شخصًا أو أقل أو أكثر ويتكلمون باسم الشرع، ويقررون أن الذي يجري في سوريا جهاد، والواجب العيني على كل مسلم أن يذهب إلى سوريا، ثم هم منهم من يذهب إلى تركيا أو يذهب إلى بريطانيا، أين أولادكم؟ أين أنفسكم؟ أنتم يا من قررتم الجهاد الواجب عليكم أن تذهبوا، أين أفعالكم؟ أنتم تقولون: الجهاد في سوريا واجب، ثم ذهبتم إلى بريطانيا وإلى تركيا، ولم تذهبوا إلى سوريا!

للأسف البليغ لا يفقهون الواقع، ولا يعرفون ماذا يجري بسوريا، كل عقلاء الدنيا يعلمون أن الذي يحصل في سوريا عبارة عن تصارع قوى دولية، كل دولة من الدول الكبرى تريد أن تصون دماء شعوبها، وللأسف أنَّ الدم المسلم أرخص الدماء، لا نفهم ماذا يجري ثم نُطلق الكلمات على عواهنها!

بعد درس شرح «صحيح البخاري» زارني بعض إخواننا من الشيشان يقول: بنت عمرها ١٧ عامًا لما سمعت المشايخ يقولون: جهاد؛ ذهبت إلى الشام، فما هو السبيل لإرجاعها؟

أيُّ جهاد هذا؟! هذه حماسات ما أنزل الله بها من سلطان، إلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❐ ❐ ❐

الفهارس العامة[1]

* فهرس الآيات القرآنية.
* فهرس الأحاديث النبوية مرتبة على الحروف.
* فهرس الآثار مرتبة على القائلين.
* الموضوعات والمحتويات.

(١) ما كان أمامه (ت) فهو في الحاشية.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	١٢٤	١٠، ١١
سورة المائدة		
﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾	١٤	١١
سورة الأنعام		
﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾	١٢٩	٣٧
سورة الأنفال		
﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾	٦	٤٧
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾	٣٣	٦٩

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾	٦٠	١٢٧
سورة التوبة		
﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾	٤٠	٨١
سورة هود		
﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾	٦١	٨٤ت
سورة الرعد		
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾	١١	٣٧
سورة النور		
﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٦٣	٧٠
سورة الشعراء		
﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾	٢١	٨٧
سورة الشورى		
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾	٢١	٨٨

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الزخرف		
﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾	٦١	٤٤
سورة الحشر		
﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾	٩	٧٢، ٨٢
سورة الجن		
﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾	٢٦ ـ ٢٧	٥١

فهرس الأحاديث النبوية
مرتبة على الحروف

طرفُ الحديث	الرَّاوي	الصفحة
اتَّقِ دعوة المظلوم!	-	٣٩
اتَّقوا الظُّلم، فإنَّ الظُّلم ظُلمات	جابر بن عبد الله	٧١
أتشهد أنِّي رسول الله؟	عمر بن الخطاب	٤٣
إذا ضنَّ النَّاس بالدِّينار والدِّرهم	عبد الله بن عمر	٧٣
إذا وقعت الملاحم بعث الله من دمشق بعثًا	أبو هريرة	١٠٣
اسمعوا وأطيعوا	أنس بن مالك	٣٤
اصبروا، فإنَّه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده	أنس بن مالك	٥٩
ألا إن إن القوة الرمي	عقبة بن عامر	١٢٧
اللهم إنِّي أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات	-	١١٢
اللهم بارك لنا في مكَّتِنا	عبد الله بن عمر	٢٤
الإمام جُنَّة يُقاتل مِن ورائه	أبو هريرة	١٢٥، ١٢٧
إنَّ بين يدي السَّاعة الهرج	أبو موسى الأشعري	٥٣
إنَّ السَّعيد لَمَنْ جُنِّب الفِتن	-	٦

طرفُ الحديث	الرَّاوي	الصفحة
أنَّ الشَّيطان يأتيهم ويقول	أبو هريرة	١١٠
إنَّ في ثقيف كذَّابًا ومبيرًا	أسماء بنت أبي بكر	٩٢
أنَّ النَّبي ﷺ صلَّى خلف أبي بكر	-	٦٢
إنَّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدلَّ	عبد الله بن عمرو	٦٠، ٦٨، ٧٧، ٧٨
إنَّه ليس بقتلكم الكفَّار	أبو موسى الأشعري	٢٤، ٥٣
إنَّه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا	العرباض بن سارية	٣٢، ٣٣
أيُّكم يقوم إلى هذا فيقتله؟	أنس بن مالك	٢١
بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم	أبو هريرة	٧١
البركة في الجماعة	-	٣٢
تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا	حذيفة بن اليمان	٥٤
حتى يقتل الرَّجل جاره، ويقتل أخاه	أبو موسى الأشعري	٥٣
سبحان الله! ماذا أنزل الليلة من الفتنة	أم سلمة	٧٠
ستكون فتنٌ، القاعد فيها خيرٌ من القائم	أبو هريرة	٨٧
صلَّى بنا رسول الله ﷺ الفجر	أبو زيد عمرو بن أخطب	٥
العبادة في الهرج كهجرة إلي	معقل بن يسار	٧٠
عليكم بالشَّام	أبو أمامة	١٠٨

طرفُ الحديث	الرَّاوي	الصفحة
فتنة الرَّجل في أهله وماله وجاره تكفِّرها الصَّلاة	حذيفة بن اليمان	١٣، ١٧
فسطاط المسلمين بأرض يقال لها: الغوطة	ـ	١٠٣
فمن أحبَّ أن يُزحزح عن النَّار ويدخل الجنَّة	عبد الله بن عمرو	٣٤
قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا	حذيفة بن اليمان	٥
قام النَّبي ﷺ خطيبًا	عبد الله بن عمر	٢٣
كيف أنت إذا بقيت في حُثالة من النَّاس	عبد الله بن عمرو	٨٩
لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدَّجال	حذيفة بن اليمان	٢٣
لا ترجع ـ أي: الشُّرْطة ـ إلَّا غالبة	عبد الله بن مسعود	١١٠
لا تقوم السَّاعة حتى تكون السَّنة كالشَّهر	ـ	٣١
لا تقوم السَّاعة حتى يتحوَّل خيار أهل العراق	أبو أمامة	١٠٨
لا تقوم الساعة حتى يكون العرب	ـ	١٢٣
لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه	أنس بن مالك	٦١، ٦٢
لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنَّم	أبو هريرة	٧١
لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين	ـ	٢٨
لن يجمع الله على هذه الأمَّة سَيفَين	عوف بن مالك	١٠٣
لو قُتل اليوم ما اختلف رجلان من أمتي	أنس بن مالك	٢٢
ما أنزل الله داءً إلَّا أنزل له شفاء	ـ	٤٤
مالي رأيتكم أكثرتم التَّصفيق؟	سهل بن سعد السَّاعدي	٦٣ت

طرفُ الحديث	الرَّاوي	الصفحة
مكتوب بين عينيه ـ أي: الدَّجال ـ: (ك ف ر)	ـ	٨٢
من سمع بالدَّجال فلينأ عنه	ـ	٣٥
من قاتل تحت راية عُمِّيَّة فمات	ـ	١١٦، ١٢٧
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا	ـ	١٢٠
مُنِعت العراق درهمها وقفيزها	أبو هريرة	١٠٤
منهن ـ أي: الفتن ـ ثلاثٌ لا يكدن يذرن شيئًا	حذيفة بن اليمان	١٧
ها إنَّ الفتنة ها هنا	عبد الله بن عمر	٢٤ت
هل ترون ما أرى؟	أسامة بن زيد	٦
وأعوذ بك من ضرَّاء مضرَّة	ـ	١١٢
والذي نفسي بيده! لو قتلتموه؛ لكان أول فتنة	أبو بَكْرة	٢١
والذي نفسي بيده ليعودنَّ الأمر كما بدأ	ـ	١٠٦
يا أبا بكر! ما منعك أن تثبت إذ أمرتك؟	سهل بن سعد السَّاعدي	٦٣ت
يا ابن حوالة! كيف تصنع في فتنة تثور في أقطار	عبد الله بن حوالة	١٠٨
يا رسول الله! هل للإسلام منتهى؟	كُرْز بن علقمة	١٨
يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك	ـ	١١٢
يأتي على النَّاس زمان، الصَّابر فيهم على دينه	أنس بن مالك	٤٨ت
يتقارب الزَّمان، ويُقبض العلم، وتظهر الفتن	أبو هريرة	٣١، ٧٢
يخرج الدَّجَّال فيتوجَّه قِبله رجل من المؤمنين	أبو سعيد الخدري	٥٥
يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان	ـ	٢٥ت

طرفُ الحديث	الرَّاوي	الصفحة
يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيًا	جابر بن عبد الله	١٠٥
ينشأ نشءٌ يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم	عبد الله بن عمر	٢٥ت
يوشك أن تطلبوا في فراتكم هذا طستًا من ماء	عبد الله بن مسعود	١٠٧
يوشك أهل العراق أن لا يُجبى إليهم قفيز	جابر بن عبد الله	١٠٥
يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب	أبو هريرة	٩٤ت، ١٠٧

❐ ❐ ❐

فهرس الآثار
مرتبة على القائلين

الأثر	الصفحة
أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ	
أنَّه نعت عمر بأنَّه: قفل الفتنة	١٤
أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ	
والذي نفسي بيده! ما أجد لي ولكم مخرجًا إن أدركتني ـ أي: الفتنة ـ وإياكم	٥٣
أبو نوفل	
أرسل ـ أي: الحجاج ـ إلى أمّه ـ أي: ابن الزّبير ـ أسماء بنت أبي بكر، فأبت أن تأتيه	٩١
أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ	
والله لا آتيك ـ أي: الحجاج ـ حتى تبعث إليّ من يسحبني بقروني	٩١
حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ	
إذا أحبَّ أحدكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر؛ فإن كان رأى حلالًا	٥٤
أوَّل الفتن قتل عثمان بن عفان	٣٢
كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير	٥٦

الأثر	الصفحة
لا تكونوا إمَّعة، إن أحسن النَّاس أحسنًا	٤٦
لوددتُ أنَّ عندي مائة رجل قلوبهم من ذهب	٤٢، ٥٥
ما الخمر صِرْفًا، بأذهب بعقول الرِّجال من الفتنة	٩٤
والله إنِّي لأعلم النَّاس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين السَّاعة	١٧
وُكِّلت الفتنة بثلاثة؛ بالحادِّ النّحرير	٢٧
الحسن البصري	
اتقوا الله! فإنَّ عند الله حجَّاجين كثيرة	٦٠
خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ	
كتب إليَّ أمير المؤمنين حين ألقى الشَّام بوانيه بَثَنِيَّةً وعسلًا	١٤
الشَّعبي	
ما جاءكم به هؤلاء عن أصحاب رسول الله ﷺ فخذوه	٨٣
عبد الله بن أبي جمرة	
وددتُ أنَّه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلِّم الناس	٦
عبد الله بن عمرو	
سَمِعَتْهُ ـ أي: حديث رسول الله ﷺ ـ أذناي، ووعاه قلبي	٣٥، ٧٧
ليأتينَّ على النَّاس زمان لا يبقى فيه مؤمن إلا كان بالشَّام	١٠٨
عبد الله بن المبارك	
الجهاد باب لا يفتحه الله إلا إذا وجد في الأمة أولياء له	١٢٨

الأثر	الصفحة
عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ	
إنَّ السَّاعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث	١٠٩
أنَّه قال لامرأته: اليوم خيرٌ أم أمس؟	٦٠
ليس عامٌ إلا والذي بعده شر منه	٦٣
عبد الرحمن بن سليمان	
سيأتي ملكٌ من ملوك العجم يظهر على المدائن كلها إلا دمشق	١٠٩
عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة	
فدنوتُ منه ـ أي: عبد الله بن عمرو ـ فقلت له: أنشدك الله! آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟	٣٥، ٧٧
علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ	
وإنَّ عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟	٥١
الفتن أربع: فتنة السَّراء، وفتنة الضَّراء	١٠٧
عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ	
أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟	١٣
رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا	١١١
مكحول	
ليتمخَّرنَّ الرومُ الشَّام أربعين صباحًا	١٠٩

الأثر	الصفحة
والد شرحبيل بن مسلم	
بلغنا أنَّه لن تقوم السَّاعة حتى يخرج خيار أهل العراق	١٠٨

❐ ❐ ❐

الموضوعات والمحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة	٥
تعريفات واصطلاحات وفروق	٩
ما معنى الفتنة؟	٩
الفرق بين الفتنة والبلاء	٩
الفرق بين الفتنة والعقوبة	١٠
مراتب الفتنة من حيث مساسها بالمكلَّف	١٣
الضرب الأول: فتنةٌ لا تنفكّ عن الإنسان في أيّ زمانٍ ومكان	١٥
الضرب الثاني: فتنةٌ تكون في آخر الزمان، وصِفَتُها أنّها تموج كموج البحر	١٦
زمن الفتنة، ومكانها، ونشأتها، واشتدادها، وآخرها	٢١
وُكلاء الفتنة	٢٧
بيئة الفتنة ومحاضنها	٣١
أوّلًا: عند الخلاف والافتراق	٣١

الموضوع	الصفحة
ثانيًا: عند قلَّة العلم	٤١
الإشارة إلى محلّ الفتنة من الإنسان	٤٣
أقسام النَّاس في التَّعامل مع أحاديث الفتن	٤٥
صفاء العلم هو ميزان الخير والنّجاة	٥٩
ما هو هذا الميزان؟	٦٣
ثالثًا: عند قلة العمل الصالح	٦٨
رابعًا: عندما يُلْقَى الشُّحُّ	٧١
مجملات وخلاصات	٧٥
مسالك النَّجاة	٧٧
مفهوم (النَّصر) ما هو؟	٨١
مفهوم الجماعة والبيعة	٨٤
تحرير القول في العزلة	٨٧
إسقاط الأحاديث النبويّة على الوقائع	٩١
الملاحم والفتن في بلاد الشَّام	١٠٣
مسألة مهمَّة: في تصحيح الأحاديث بموافقة الواقع	١١١
أسئلة وأجوبة في فتنة القتال في سوريا	١١٣
الفهارس العامة:	١٣١
فهرس الآيات القرآنية	١٣٣

الموضوع	الصفحة
فهرس الأحاديث النبوية مرتبة على الحروف	١٣٧
فهرس الآثار مرتبة على القائلين	١٤٣
الموضوعات والمحتويات	١٤٧